الفَصْلُ الثَّانِي

بيان أثر قانون الإيمان المسيحي في سلطة الكنيسة على النصارى وانقلابهم عليها

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: أثر قانون الإيمان المسيحي في إضفاء السلطة المطلقة للكنيسة
- المبحث الثاني: انقلاب النصارى على الكنيسة

المبحث الأول

أثر قانون الإيمان المسيحي في إضفاء السلطة المطلقة للكنيسة

إن تسلط الكنيسة وممارستها للسلطة المطلقة المتحكمة في رقاب الناس في حياتهم وبعد مماتهم أيضا – في منظورها– هو النتيجة الحتمية لقانون الإيمان المسيحي المنعقد في مجمع نيقية، الذي عبد الطريق أمام رجالات الكنيسة في تحقيق سلطتهم الدينية والدنيوية على رعاياها.

وذلك أن هذا القانون الجائر، ورد فيه ضمن ما ورد، التنصيص على الكنيسة الجامعة حيث يقول: (ونؤمن بكنيسة واحدة جامعة رسوليه).

ولفظة الكنيسة بمعناها العام عند النصارى هي جماعة المؤمنين بالمسيح[1] وهم الشعب الذي يدعوه ويجمعه الله من أقاصي الأرض لينشئ جماعة الذين يؤمنون بالمسيح يصيرون أبناء الله وأعضاء المسيح[2] لأن جميع المؤمنين يؤلفون شركة القديسيين أو جسدا روحيا واحدا رأسه الوحيد هو المسيح[3]

ورسالة الكنيسة هي (أن تعلن وتقيم بين الأمم ملكوت الله الذي بدأه يسوع المسيح وهي على الأرض نواة ملكوت الخلاص)[4]

ولما كان هذا الشعب الذي يجمعه الله من أقاصي الأرض بحاجة إلى من يقيم أمره، ويرعى مسيرته، لإيصال هذه الرسالة لجميع الأمم وتبليغها إليهم، رأت الكنيسة أنها هي الجامعة المقدسة الرسولية التي ورد ذكرها في قانون الإيمان المسيحي.

---

١ انظر: اللاهوت النظري، الياس الجميل، ص ٢١٤

٢ انظر: مختصر التعليم المسيحي – الكتاخسيمس الصغير –، مارتن لوثر، ص ١١٨ ومختصر التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ص ٥٣

٣ انظر: الكنيسة الخالدة، متى المسكين، ص ١١ ومختصر التعليم المسيحي الكتاخسييمس الصغير، مارتن لوثر، ص ١١٩ وأضواء على الإصلاح الإنجيلي، القس فايز فارس،ص ٤٤

٤ مختصر التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ص ٥٤

وهذا ما فهمه آباء الكنيسة الأول، ولذا فقد صرح اغناطيوس[1] الذي يعد خليفة بطرس روما بان (لاهوت الكنيسة مرتبط بلاهوت الإله الواحد والثالوث الأقدس)[2] ولذا كان من أبرز تعاليم اغناطيوس في تعليمه لاتباع رجال الكنيسة قوله:(استحلفكم أن تتموا أعمالكم جميعا بروح الائتلاف الذي يرضي الله تحت رئاسة الاسقف الذي يحل محل الله...)[3]

وصرح أقليمس أسقف روما الثالث بعد بطرس بأن المسيح الإله خص الرسل بالسلطة في الكنيسة وأن هؤلاء سلموها لخلفائهم وأنه لا يجوز لابناء الكنيسة أن ينزلوا الكهنة عن مراكزهم لأنهم ليسوا هم الذين يقلدونهم السلطة ثم يقول: (إن الرسل أرسلوا من السيد يسوع المسيح ويسوع المسيح أرسل من الله.. وهذا الامران صادران بتدبير حسن عن مشيئة الله)[4]

ثم توصل اقليمس بهذه المقدمة إلى النتيجة التي يهدف إلى تقنينها وهي وجوب الالتزام بما تشرعه الكنيسة من قوانين، ولهذا يقول بعد ذلك: (وعلم رسلنا أنه سينشأ خلاف حول الأسقفية فعملوا بمعرفتهم السابقة لما سيكون، ثم وضعوا هذا القانون: أنه بعد وفاتهم يقوم غيرهم ممن جرب بعملهم..)[5]

وهذه المقدمات والنتائج التي استنتجها أغناطيوس واقليمص، تعد من بواكير القوانين التي قننتها الكنيسة فيما بعد، وهي وجوب الإيمان بما شرعته الكنيسة وما قننه رجالها، وأن

---

١ اغناطيوس: هو أحد أبرز اباء الكنيسة الكاثوليكية ويعدونه اخليفة الثاني للقديس بطرس على كرسي روما توفي سنة ٦٨م. انظر: تاريخ الفكر المسيحي عند اباء الكنيسة، المطران كيرلس سليم والاب حنا الفاخوري والاب جوزيف البولسي، ص١٣٨ وما بعدها.

٢ تاريخ الفكر المسيحي عند اباء الكنيسة، المطران كيرلس سليم والاب حنا الفاخوري والاب جوزيف البولسي، ص ١٥٢

٣ تاريخ الفكر المسيحي عند اباء الكنيسة، المطران كيرلس سليم والاب حنا الفاخوري والاب جوزيف البولسي، ص ١٥٣

٤ انظر: اباء الكنيسة، اسعد رستم، ١٣- ١٤

٥ نفس المرجع

الكنيسة "كنيسة واحدة هي ملكوت الله في الارض وجسد سري واحد رأسه المسيح المخلص الفادي"[1]

ولكن الإشكال الكبير هنا، ما هي هذه الكنيسة التي هي ملكوت الله في الارض؟، والتي تعد الجسد السري للعالم أجمع والتي توصف بانها الجامعة المقدسة الرسولية -كما في قانون الإيمان المسيحي-؟.

لقد وقع الاختلاف الكبير بين الأساقفة وكهنوتيي الكنيسة منذ أن هدأ الطغيان عليها من قبال أباطرة روما، ولا زال هذا الامر موضع نقاش، بل تعدى ذلك إلى اختلافات ومواجهات بين اتجاهات الكنيسة إلى اليوم.

فكل كنيسة تدعي أنها هي الجامعة المقدسة الرسولية، فالكاثوليك يرون أن كنيستهم هي الكنيسة الجامعة، كما يقول ج. ويللتر[2] : (فعلى امتداد حوالي ألف سنة كانت الكنيسة الرومانية كاثوليكية حقا بالمعنى الاشتقاقي للكلمة أي جامعة.. ظلت تدير بلا جدال كل أوربا الجنوبية والغربية والوسطى والشمالية كانت قد فرضت الإيمان في كل مكان ونظمت الآداب والسلوك)[3]

يقول القديس أغناطيوس في شرحه لمعنى الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية قوله: (واتبعوا جميعكم الأسقف كما تبع يسوع المسيح الله الأب وسيروا في إثر شيوخكم سيركم في أصر الرسل واحترموا الشمامسة كما تحترمون وصايا الله ولا تأتوا بعمل يمت إلى الكنيسة بصلة منفردين عن الأسقف والذبيحة الإلهية لا تصبح شرعية محللة إلا برئاسة الأسقف أو من يفوضه بها وكونوا حيث يكون الأسقف فحيث يكون يسوع المسيح هناك تكون أيضا الكنيسة الجامعة)[4]

---

١ انظر: الكنيسة الخالدة، متى المسكين، ص ١١ ودليل الى قراءة تاريخ الكنيسة، ٢/١٠

٢ كاتب واديب فرنسي كتب كتابه الهرطقة في المسيحيةة في عام ١٩٥٠ م. انظر: مقدمة الطبعة العربية لهذا الكتاب، تعريب جمال سالم، ص ٥

٣ الهرطقة في المسيحية ص ١٠٧

٤ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، أسعد رستم، ص ٥٣

ويقول القديس نكتاريوس أسقف المدن الخمس[1] في شرحه لقانون الإيمان: (نقرّ بأننا بعد الإيمان بالإله الثالوثي نؤمن بكنيسة الإله الثالوثي،...وبشكل شامل بالحقائق التي تعلّمنا إياها هذه مؤسسة الكنيسة الإلهية أنظمتها وأسرارها ووصاياها، التي بها وحدها الخلاص للعالم. هذا لأن سبب تأسيس الكنيسة ورسالتها في العالم هي استعادة ملكوت الله علىالأرض من خلال خلاص الجنس البشري وشركته مع الله)

ثم يؤكد أنه (يستحيل فهم أسرار الله علينا أن نؤمن بالكنيسة التي علّمها الروح القدس وثبّتها في قوّة هذه الأسرار وعملها)[2]

وهذا ما يقرره كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية حيث يقول تحت عنوان: (الكنيسة واحدة مقدسة كاثوليكية رسولية) حيث يقول:(تستمر كنيسة المسيح الواحدة بمثابة مجتمع قائم ومنظم في العالم في الكنيسة الكاثوليكية التي يسوسها خليفة بطرس والأساقفة الذين على الشركة معه بهذه الكنيسة وحدها يمكن الحصول على ملء وسائل الخلاص لأن الرب قد ائتمن على جميع خيور العهد الجديد الجماعة الرسولية التي يرأسها بطرس)[3].

---

١ ولد القديس نكتاريوس في عام ١٨٤٦ وفي عام ١٨٧٦ بدأ حياة الرهبنة ثم أصبح مطراناً للمدن الخمس في وقت قصير، وهذه المدن الخمسة تقع ما بين طرابلس غربا وولاية مريوط المصرية في الصحراء الغربية وهي بنغازي وبرقة وطلميثا ومرسي جودة وشمات . انظر: تاريخ المسيحية الشرقية، عزيز سوريال، ترجمة إسحاق عبيد، ص ٥٣١

٢ شرح دستور الإيمان،٣، موقع التراث الأرثوذكسي، القديس نكتاريوس أسقف المدن الخمس نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

٣ مختصر التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ص ٥٧

بل ترى الكنيسة الكاثوليكية أن تفسير الإيمان المسيحي التفسير الصحيح عهد فيه إلى سلطة الكنيسة التعليمية وحدها أي إلى خلفاء بطرس أسقف روما وهذا ما أكد عليه المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني [١]

وهذا المفهوم الكاثوليكي يرفضه الأرثوذكس والبروتستانت رفضا قاطعا، ولهذا يعرف البروتستانت الكنيسة في مفاهيم آباء الكنيسة البابوية تعريفا ساخرا بقولهم: (الكنيسة عندهم هم من يعتقدون اعتقادا واحدا ويمارسون أسرارا واحدة ويطيعون رؤساؤهم الدينيين، فقولهم:يعتقدون اعتقادا واحدا يستبعد المعترضين والهراطقة وقولهم: " يمارسون أسرارا واحدة "يستبعد غير المعتمدين وقولهم "يطيعون رؤساءهم " يستبعدون كل الذين يرفضون الرؤساء الدينيين)[٢]

وهذا الاستهجان لتعريف الكنيسة الكاثوليكية من قبل البروتستانت يوافقهم عليه الأرثوذكس أيضا، يقول الكاتب النصراني الأرثوذكسي أسعد رستم مقررا أن الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية هي الكنيسة الأرثوذكسية فيقول: (وكنيستنا واحدة جامعة مقدسة رسوليه، فإننا جميعنا قد اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد...ومكانة كنيستنا في تاريخ البشر، لأنها أذعنت لله، وسعت إلى تطبيق مشيئته، وطلبت من المؤمنين إيمانا وعملا في آن واحد... والكنيسة تتألف من عنصر الهي، ومن عنصر بشري، من الحقيقة الإلهية المعطاة لها، ومن سعيها البشري لتنفيذ المشيئة)[٣]

ثم يقول:(والغربيون أخطئوا في التشديد على نواح معينة من العمل، وإعطائها المرتبة الأولى، وهكذا فإنه يحق للأرثوذكسي الشرقي، أن يفاخر بشدة على حرصه على استقامة الإيمان)[٤]

---

١ انظر: من ظلمة الشك إلى نور اليقين، الاب زكريا الشوملي، ص٦٦-٧٥ ونفس المرجع ص ١٤، وسوف يأتي الحديث عن هذا المجمع في الفصل التالي، في مبحث الإصلاحات الكاثوليكية.

٢ علم اللاهوت النظامي، القس انس جمس، ص

٣ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، اسعد رستم، ص ٢٢

٤ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، اسعد رستم، ص٢٣

بل وصل الاختلاف في تعيين الكنيسة الجامعة إلى اختلاف بين أتباع المذهب الواحد ، فالكنيسة السريانية ترى أنها هي المقصودة بالكنيسة الجامعة ، يقول المطران إسحاق ساكا[1] : (هذه هي الكنيسة التي نشأت في القدس مؤلفة من الرسل والمبشرين وامتدت إلى أنطاكية وشملت الأمم والشعوب كافة، ... وأطلق عليها تسمية الجامعة وظلت حتى اليوم محافظة على ما رسمه السيد المسيح والرسل والآباء الأولون من عقيدة وإ يمان)[2]

ويبدوا أن عدوى تنازع السلطة الكنسية قد ألقى بظلاله أيضا على البروتستانت — رغم رفضهم الظاهر لها – ، فيقول مارتن لوثر : (لماذا تدعى بالسلطة الكنسية المميزة ؟... لأنها سلطة معطاة للكنيسة فقط...لقد أعطى المسيح هذه السلطة لكنيسته على الأرض ولكل كنيسة محلية بشكل خاص)[3]

وهذا ما يؤكده القس فايز فارس بقوله:(إن الوحدة المسيحية ليست وحدة لرئاسة لمنظورة لكنها وحدة الخضوع لرأس الكنيسة وأسقفها العظيم الرب يسوع المسيح والتف تحل عمل روحه والانقياد لهذا الروح ولإرشاده)[4]

وكذا نجد الصراع بين طوائف النصارى الكبرى في سبيل نيل لقب الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية، وعلى كل حال، فهذه الجملة، أعني بها قولهم:"جامعة رسولية" هي الباب المشرع الذي توافد باباوات الكنيسة ورجالاتها على الدخول من خلاله للتسلط على النصارى، وهو يحوي إشارة واضحة لتأسيس الإيمان بكنيسة واحدة فقط وإنكار ما عداها بل ودحرها[5].

---

١ هو النائب البطريركي للدراسات السريانية، انظر مقدمة كتابه كنيستي السريانية .

٢ كنيستي السريانية، المطران إسحاق ساكا، ص ٢٥

٣ مختصر التعليم المسيحي الكتاخسييمس الصغير –، مارتن لوثر، ص ١٥٧

٤ أضواء على الإصلاح الإنجيلي، القس فايز فارس، ص٧١

٥ Smith the death of classichl paganism,٢١٨ and:Ipid,١٦٦-١٦٧ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٧ وص ١٩٩

ومع الاختلاف بل والتضاد في صحة إطلاق معهوم الكنيسة الجامعة، إلا أن متفقون على أمر مهم.

هذا الأمر المهم هو المغهوم الواحد ما بين هذه الطوائف في اعتقاد ملكوت الله في الأرض الذي يرأسه المسيح المخلص الفادي وليتحد به كل إنسان شاء أن يتحد به[1] هذا الملكوت الذي ورثته كنيسة التثليث المقدس وألوهية المسيح، وتكفير ما عداها والحكم بهرطقتها.

هذا الأمر المهم هو المغهوم الواحد ما بين هذه الطوائف في اعتقاد ملكوت الله في الأرض الذي يرأسه المسيح والذي ورثته كنيسة التثليث والاعتقاد بأن زعماء الكنيسة هم خلفاء الله على الأرض[2].

وإذا مارجعنا إلى تاريخ هذا المفهوم الكنسي، سوف نقف على أول شذراته حينما دعت الكنيسة إلى طاعتها باعتبارها وراثة سلطان المسيح، بحيث يكون النصارى تابعين لكهنة الكنيسة تبعية مطلقة في شتى العلوم والمجالات، ولا يجوز التعليم ولا المعرفة إلا عن طريقهم، لأنهم هم خلفاء المسيح والقائمين بأعمال الرسل،يقول القديس ايريناليوس: (من المتوجب إطاعة الكهنة الذين هم في الكنيسة... الذين يمتلكون الخلافة من الرسل فهؤلاء – مع الذين يمتلكون الخلافة من الأساقفة – قد تسلموا منحة خاصة من الصدق) [3] وجرى تسمية كل كهنة ومعلمي الكنيسة على اختلاف مراتبهم باسم آباء الكنيسة[4]

---

١ انظر: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة ٢/١٠

٢ انظر: إن الله لا يمكن غدراكه، يوحنا فم الذهب، مقدمة الكتاب، ص ١٠ و اللاهوت النظري، الياس الجميل، ص ٢٢٦

٣ Irenaeus Against heresies ٤,٢٦.٢. volume I(Buffalo Christian Literature publishing co ١٨٨٥) نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٤ وأضواء على الإصلاح الإنجيلي، القس فايز فارس ص ١٠

٤ انظر: مدخل إلى علم الاباء، د/ نصحي بطرس، ص٧

ولترسيخ هذا المفهوم أوحت الكنيسة إلى قلوب أتباعها أن العالم المادي الأرضي مملكة للشيطان وأن الرب قد انفصل عن ذلك العالم المادي [1] وما ذلك إلا للإيحاء لإتباع الكنيسة بأن ما يفعله البابوات إرضاء للرب وإرغاما للشيطان وهم الوسطاء بين الرب وبين بني الإنسان.

والواقع، أن هذه النظرة السوداوية للعالم المادي الأرضي قد اقتبست خيوطها من نصوص الكتاب المقدس نفسه الذي صور العالم الأرضي في صورة العالم الشيطاني ومنبع الذنوب، فقد وصف بولس أعداء صليب المسيح على إن (إلههم في بطنهم وهم الذين يفتكرون في الأرضيات)[2] هذه الأرض التي قال الله — فيما نسبوا إليه – عنها لآدم (ملعونة الأرض بسببك)[3]

ولهذا لا يمكن النجاة إلا من خلال مملكة الله على الأرض وهي الكنيسة، وهذا ما كرسه بولس في مفهوم معنى الكنيسة حينما يقول: (وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأسا فوق كل شيء للكنيسة التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل)[4]

لقد جزت الكنيسة رقاب الموافقين لها والمخالفين على حد سواء،بعد تقرير هذا المفهوم، فكانت كالنار الهوجاء التي لا تميز بين غث وسمين، فأكلت كل ما قدرت على أكله خشية إفاقة أتباعها من سباتهم، ومع ذلك، نجد من يعتذر لتلك الأفعال المشينة من قبل الكنيسة كما هو حال القس فاير فارس حينما يعتذر لتلك الأفعال بأن (الكنيسة كأي كيان موجود في عالم الضعف والقصور الذي نحيا فيه تعرضت أحيانا كثيرة لعوامل الضعف الإنساني بسبب الأطماع البشرية في قيادتها والابتعاد عن كلمة الله في غذائها الحقيقي والانسياق وراء الدنيويات والأهواء من جانب رجال الدين وعامة الشعب على السواء)[5] ولكن يبدوا أن

---

١ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٥٥

٢ فيلبي ١٩/٣

٣ تكوين ١٧/٣

٤ أفسس ٢٢/١-٢٣

٥ أضواء على الإصلاح الإنجيلي، القس فايز فارس،٩

القس نسي أن الكنيسة كانت تعمل أعمالها باسم الله وليس باسم البشر، وأنهم موجهون من الروح القدس وليس من قبل الخلق.

ومن خلال السطور التالية يلقى الضوء على أهم أشكال السلطات التي مورست من قبل الكنيسة وذلك كما يلي:

أولا :السلطة الروحية والدينية:

تبوأ كرسي الكنيسة البابوية في روما مكانة لا تدانيها مكانة، فلصاحبها كامل التقديس وهو المقدم والمكرم لدى أهل التثليث ، حيث يعتبر باباواته – حسب اعتقادهم – خلفاء القديس بطرس، على ذلك الكرسي، كرسي بطرس، ذلك الذي قدمه يسوع على بقية التلاميذ، وجعله هو الأساس الذي تبنى عليه كنيسته وأعطاه مفاتيح السموات، وأن ما يربطه أو يحله يكون مربوطا أو محلولا في السماء، كما هو مدون في إنجيل متى: (وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكلما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماء واتو كلما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات)[١] ثم ادعى أساقفة روما أنهم ورثوا كل المزايا لشخص القديس بطرس ولمنصبه[٢] وتبعتهم على ذلك جميع الكنائس المتسببة إلى المسيحية.

وتدرج هذا المفهوم حتى غدا أصحاب هذا المنصب الجديد لهم الحل والعقد ليس في المسائل الدينية فحسب بل في كل شؤون الحياة منذ سنة ٤٧٦[٣]., ويمكن بيان ذلك في الكنيسة فيما يلي:

أ – أنهم هم الممثلون الشرعيون عن الله:

---

١ متى ١٨/١٦

٢ انظر: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ادوارد جيبون ٧٦٢/١

٣ انظر: تاريخ اوربا – العصور الوسطى – القسم الأول –فشر، ترجمة:محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، ص ١٠٨-١٠٩ وقصة الحضارة ١٠٥/١/٤ واوربا العصور الوسطى، د/سعيد عاشور ٥٤/١

أصبح باباوات الكنيسة الذين يتجلببون بجلباب الدين ويتدرعون بدرع الكهنوت في الكنيسة الكاثوليكية هم الممثلين الشرعيين (لرب صاحب سلطان يتطلب طاعة عمياء وهو يعاقب المتمرد من دون رحمة وتعتقد المسيحية القويمة بأن الخوف ضروري وأساسي من أجل تمتين ما اعتقدوه أنه نظام طبقي متدرج له السمة اللاهوتية فيه يحكم الرب اللاهوتي فرديا من مكان شاهق بعيدا جدا ونائيا عن الأرض وعن جميع بني البشر)[١]

والمفهوم الارثوذكسي للكنيسة الارثوذكسية لا يختلف عن المهوم الكاثوليكي، فيما يتعلق بإنباتهم عن الله، ولذا يعتقدون (أن الكهنوت قوة الهية تحل في عقل الكاهن فيستنير بها عقله يؤيده الله لغاية.. هي نفع شعبه وصلاحهم على يديه)[٢] وأنهم (ملائكة أرضيون وبشر سمائيون تابعون المسيح حسب طاقتهم.. متشبهون برسله في التجرد من قنايا العالم ودحض شهواته ورفض كل شيء)[٣]

ب- ربط مخافة البابا بمخافة الله:

نجح آباء الكنيسة الأولون في ربط مخافة الله بمخافة البابا وأن مخافة البابا جزء لا يتجزأ من مخافة الله، ويصف القديس خريسوستون في القرن الرابع chresostom يصف الضرورة الحتمية للخوف فيقول: (إذا كنت ستقوم بتجريد العالم من القضاة ومن الخوف الصادر عنهم فإن البيوت والمدن والأمم سوف تتهادى بعضها فوق بعض في فوضى لا يمكن ضبطها لأنه ليس هناك أي واحد يضغط عليهم أو يردعهم أو يقنعهم أن يعيشوا بسلام من خلال الخوف من العقوبة)[٤]

---

١ التاريخ المسيحي المظلم ص ١٥

٢ المجموع الصفوي لابن العسال ص ٩٤

٣ المجموع الصفوي لابن العسال ص ٩٥

٤ Elaine pagels,adam eve and the srprnt (newyork) random hause ١٩٨٨ ٩٢ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٠ والمشكلة الاخلاقية والفلاسفة، اندريه كريسون، ص ٣٠٤

فأصبح رجال اللاهوت في الكنيسة بمراتبهم الأسقف والكاهن[1] والشماس[2] هم مرأى للمراتب السماوية[3] وهم المتمتعون بسلطان المسيح وعندما يجمعون على عقيدة بأنها نهائية فيجب قبولها من كل مسيحي[4] يقول اغناطيوس: (وأسقفك يترأس في مكان الرب وكاهنك.. في موضع الرسل) ثم قال: (ومن دون هؤلاء ليس هناك كنيسة) [5]

ج – أن الكنيسة مشرعة ومعصومة:

حينما أرادت الكنيسة أن تشرع ما طاب لها من العقائد والشرائع، سلكت مسلك التدريج في ذلك، فقررت قبل ذلك أن تشرع أمرا مهما، وتمهيدا ضروريا تسبق مرحلة التشريعات الكنسية، وهو تقرير مبدأ العصمة لها، فرسخت مفهومها السائد بأنها (تحت نظام واحد مقامة من الله فهي معلمة معصومة ذات سلطان)[6]

وعندما تقرر ذلك، بدأت في التشريعات المعصومة وبدأ رجالها، يحلون ويحرمون، ويستحبون ويكرهون، فالتشريع لم يقتصر في نظرهم على تشريعات الله فقط، بل حتى على أقوالهم، فأصبحوا مشاركين لله في التشريعات الربانية، وهذا ما يصرحون به، ولهذا يقول " وليام تامبل"[7]: (إن من الخطأ الفاحش أن نظن أن الله وحده هو الذي يقدم الديانة أو القسط الأكبر منها)[8].

---

١ الكاهن هو خادم دين مطلقا. وفي اصطلاح الكتاب المقدس هم الموكلون بتقديم الذبائح. انظر:قاموس الكتاب المقدس ص ٧٩١

٢ الشمامسة هم خدام الكنيسة يقومون بالوعظ ونحوه. انظر:قاموس الكتاب المقدس ص ٥١٩

٣ Ignatius, magnesians VI and trallians m نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٢

٤ انظر: مختصر التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ص ٦٣-٦٤

٥ Ignatius magnesians VI and trallians ante Nicene Christian library (Edainburgh T&T clark) نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢١ و Irenaeus Against Heresies ٢.٢٧.١-٢. نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٥

٦ علم اللاهوت النظامس، القس جمس انس، ص

٧ أسقف كنيسة كنتربري وحبر حبار إنجلترا.

٨ الجفوة المفتعلة بين العلم والدين، ص ١١

ويمكن أن تجمل أهم الأمور التي أدخلها رجال الكنيسة في الديانة المسيحية فيما يلي:

١- أدخلت الكنيسة كثيرا من الأعياد الوثنية في الديانة المسيحية[١]

٢- فرض عقيدة التثليث والصلب والفداء قهراً ، وسفكت دماء منخالف هذه العقيدة وعذبت من يشك فيها[٢].

٣- حرمت الختان[٣]، وزواج رجال الدين[٤]، وأحلت أكل الميتة [٥]وشرعت التماثيل[٦].

٤- أدعت الكنيسة أنها تملك حق الغفران، فأصدرت صكوك الغفران التي يبيعهارجال الدين بأغلى الأثمان[٧]. فحرمت أفرادا وجماعات كثيرين وكان الحرمان شبحا مخيفا يؤرق هاجس كل مسيحي، فقد تعرض للحرمان كثرة كاثرة لاتعد ولا تحصى سواء كانوا من الحكام أو من المحكومين او الملوك كأمثال فريدريك وهنري الرابع الألماني وهنري الثاني الإنجليزي والعماء والباحثون المخالفون لآراء الكنيسة، وقد تعرض البريطانيون لحرمان جماعي عندما حصل خلاف بين يوحنا ملك الإنجليز وبين البابا فحرمه البابا وحرم أمته فعطلت الصلاة من الكنائس وتوقفت عقود الزواج وحملت الجثث الى القبور بلا صلاة وعاش الناس في حالة هيجان واضطراب مرير إلى أن تاب الملك بذلة وصغار أمام البابا [٨]

---

١ نفس المرجع ص ١٥٩-١٧٩

٢ وذلك بإنشاء محاكم التفتيش في العصور الوسطى، كما سوف يتين من خلال الحديث عن سلطة الكنيسة في مباحث تالية.

٣ رومة ٢٩/٢

٤ أعمال الرسل ٢٥/٢٢

٥ عبرانيين ٢/٩

٦ انظر: قصة الحضارة ٤٣٤/١٤

٧ انظر: قصة الحضارة ٦/٣/٦ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٧٢ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣١

٨ انظر: قصة الحضارة

٥- فرض الرهبانية والانقطاع عن الدنيا والامتناععن الزواج، ولكن لا بأس من ممارسة الجنس مع الراهبات في الأديرة، ولأنه أيضاً منأسباب تطهير الذنوب فيما يسمى مع من يطلب الغفران

٦- شرعت شعيرة جديدة تتعلق برجال الكنيسة وأسموها بسر الكهنوت[1]، يقول كتاب تعليم الكنيسة الكاثوليكية عن سر الكهنوت:(يدل النظام على هيبة كنسية منظمة يتم الانضمام إليها بتكريس، وهذا التكريس ينتج بموهبة خاصة من الروح القدس ممارسة سلطان مقدس، باسم المسيح وسلطانه في خدمة الشعب)[2]

ويرون أنهم في ممارسة خدمتهم المقدسة يتكلمون ويعملون، لا بسلطانهم الخاص، ولا بوكالة أو تفويض من الشعب، بل من قبل خلافة المسيح شخص المسيح وباسم الكنيسة[3]

٧- تفرد الكنيسة بفهم الكتاب المقدسوتفسيره:

وبه ألغت الكنيسة عقول تابعيها، وعطلت تفكيرهم، واحتجزت لنفسهاحق الفهم والتفسير للكتاب المقدس دون سائر الناس[4] وقررت ان تعاليم الكتاب المقدس فوق مستوى عقل البشر وان كل ما جاء في الأناجيل لا ينبغي للعقل ان يجادل فيه لان سلطانها اقوى من كل سلطان امر به العقل البشري فلها الحق وحدها في ذلك [5] كما يقول القديس اوغسطين وان الحقائق الإيمانية –كما يقول القديس توما الاكويني– (لا يقوى العقل على التدليل عليها)[6]

---

١ وقد تقدم الحديث عن أسرار الكنيسة السبعة عند الحديث عن المعمودية عند النصارى ص من هذا البحث.

٢ تعليم الكنيسة الكاثوليكية ص ١٠١

٣ انظر: تعليم الكنيسة الكاثوليكية ص ١٠٤

٤ انظر: الجفوة المفتعلة بين الدين والعلم ص ١٥–١٦

٥ انظر: مختصر تعليم الكنيسة المسيحية الكاثوليكية ص ١٤

٦ قصة النزاع بين الدين والفسقة، توفيق الطويل، ص ٨٧

٨- حكمت بعصمة البابابوات فيما يتعلق بتعليم الدين في المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٨٧٠م[١].

وهذه الأمور التي أدخلتها الكنيسة بمباركة الباباوات أصبحت أسسا عقدية أجبر عليها النصارى واعتقدت أنها من أصول الدين المسيحي.

د – الشرائع الأخلاقية:

هناك تعاليم أخرى عقدية وأخلاقية طقسية غير عقدية، بشرت بها الكنيسة بين أتباعها وحملت الناس على الإيمان بها، كتعليم الكنيسة من أن الوجه الفردي للرب هو وجه ذكر ولذلك عدوا سيادة الذكر امتدادا للنظام السماوي ولذلك كتب القديس اوغسطين في القرن الخامس للميلاد:(ينبغي أن نخلص إلى أن الزوج قصد به أن يحكم زوجته مثل ما يحكم به الروح على الجسد)[٢] متأثرا بما ورد في رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس[٣].

وإلى تاريخ متأخر عام ١٩٧٧م ظل البابا بولس السادس[٤] يوضح بان النساء ممنوعين من الدخول في سلك الكهنة "بسبب أن ربنا هو رجل"[٥] وكان النساء في اعتبار الكنيسة هن "الوعاء الأضعف " حسب تعبير القديس بطرس وقد كتب القديس كليمنت:(ينبغي على كل امرأة أن تشعر بالعار من خلال التفكير أنها امرأة)[٦]

---

١ انظر: علم اللاهوت النظامي ص

٢ ١١٣-١١٤ Pagels, Adam Eve And the serpent نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٢

٣ انظر ٧/٣٤-٣٧

٤ انظر ٧/٣٤-٣٧

٥ Riane Eisler the chaice and the blade (san Francisco ;Harper raw ١٩٨٧) ١٣١-١٣٢ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٣

٦ التاريخ المسيحي المظلم ص ١٣١

ويخاطبها الأب تيرتوليان[1] بقوله:(أنت باب الشيطان وأنت لست سوى البائعة لتلك الشجرة وأنت أول من تخلى عن الشريعة اللاهوتية وأنت التي أقنعته وهو الذي لم يكن الشيطان شجاعا بما فيه الكفاية حتى يهاجمه وأنت التي دمرت بصورة فائقة السهولة صورة الرب وبسبب ذلك انك تستحقين الموت حتى لقد توجب على ابن الرب أن يموت)[2]

ويصف أحد فلاسفة القرن السادس[3] المرأة بقوله (المرأة هيكل بني على بالوعة قاذورات)[4]

وفي القرن السادس في مجمع ماكون صوت الأساقفة حول ما إذا كان للنساء أرواح ويصف الأب توماس الاكويني في القرن الثالث عشر أن الرب قد اقترف خطا بخلقه للمرأة فهي فيها غش وعيب من أصل الخلقة (ولذلك توجب عدم خلق المرأة وقتها)[5]

هـ – اختراع مفهوم الهرطقة:

أرادت الكنيسة أن تفعل دورها المهم في التزام النصارى بما شرعته وحرمته، ولتفعيل هذا الدور المهم اخترعت الكنيسة مصطلح مهم، أدان لها رقاب الناس، بل رقاب الملوك والنبلاء، وهو اسم "الهرطقة " على كل من خالف أوامر الكنيسة في أي مجال من المجالات، وقد أخذت هذه الكلمة من الكلمة الإغريقية Hairesis التي معناها يختار[6].

---

١ وهو أحد اباء الكنيسة في القرن الثاني ولد عام ١٦٠ وتوفي عام ٢٣٠م وكان من المدافعين عن عقيدة الوهية المسيح، انظر معجم الفلاسفة، ص ٢٣٢ و تاريخ الفكر المسيحي عند اباء الكنيسة، المطران كيرلس سليم والاب حنا الفاخوري والاب جوزيف البولسي، ص ٣٢٨

٢ التاريخ المسيحي المظلم ص ١٣١

٣ وهو الفيلسوف بوثيوس

٤ التاريخ المسيحي المظلم ص ١٣١

٥ التاريخ المسيحي المظلم ص ١٣٢

٦ انظر: موسوعة الأديان الحية، ر.س. ريفنز، المسيحية، ج.ج.ديفز، وهو محاضر علم اللاهوت في جامعة بريمنجهام ص ١٨٤ والهرطقة في المسيحية ص ٢٠ و التاريخ المسيحي المظلم ص ٤٥

وكان أول من استعمل كلمة هرطقة بهذا اللفظ هو أغناطيوس أسقف أنطاكية في نهاية القرن الأول[1] ثم أصبحت عادة مسيحية راسخة الجذور بحيث يتم وصف عدم مشاركة أعضاء الكنيسة الآخرين والتآلف معهم بأنهم هراطقة[2]

وأصبح تعريف الهرطقة عند النصارى هو: رأي ديني مدان كنسيا، على أنه مناقض للإيمان المسيحي، أو هو خطا إرادي ومتشبث به متعارض مع مبدأ إيماني موحى به وتعلمه الكنيسة بصفته هذه [3].

وشروط انطباق وصف الهرطقة هي:

١ – أن يكون المرأ معمدا

٢ – أن يصر على خطأه المخالف للوحي وللنصوص.

ولهذا ينص القانون الكنسي الحالي على ما يلي:(إذا أنكر أحدهم بعد أن يكون تلقى العماد في الوقت نفسه، الذي يحتفظ فيه بصفة مسيحي، إذا أنكر بإصرار إحدى الحقائق التي يجب اعتبار أنها تتعلق بالإيمان الإلهي والكاثوليكي أو شك بها يكون هرطوقيا)[4]

---

١ انظر: الهرطقة في المسيحية ص ٢٠ ويعزى اقتباس معنى هذه الكلمة إلى بعض رسائل بولس وبطرس في العهد الجديد التي وصف فيها المخالفين بلفظ التجديف أو البدعة حيث يقول بطرس: (وسيتبع كثيرون تهلكاتهم الذين بسببهم يجدف على طريق الحق) بطرس الثانية ٢/١وحينما يصف المخالفين بعدة أوصاف فيقول: (عبادة الأوثان سحر عداوة خصام غيرة سخط تحزب شقاق بدعة) غلاطية ٥/٢٠

٢ انظر: موسوعة الاديان الحية، ر.س. ريفنز، المسيحية، ج.ج.ديفز، وهو محاضر علم اللاهوت في جامعة بريمنجهام ص ١٨٤ مع أن وصف الهرطقة أخذت منه كل كنيسة ما يناسبها منه، حيث إن كل كنيسة لها رأيها الخاص في الكنائس الأخرى حيث تعتبر ما عداها من الكنائس المخالفة لها مهرطقه وان أصحابها أصحاب بدع هرطوقية انظر: نفس المرجع

٣ انظر: الهرطقة في المسيحية ص ١٧

٤ الهرطقة في المسيحية ص ٢٣

فأصبح ما يقوله باباوات الكنيسة وكهنتها هو الحق والصواب، وما عداه هرطقة، مهما كان خطأ، لأنهم هم نواب المسيح وخلفاء بطرس "أول الرسل "[1].

لقد أراد سلاطين الكنيسة أن تكون الكنيسة هي الإله الجديد، الذي يحل محل الله في قلب كل مسيحي، في تشريعاتها وعقائدها، والحكم على هرطقة مخالفيها (ولم تعد لهم رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس... كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة لا لانهم على ثقة من عقيدتهم بل لانهم غير واثقين فيها...فلم تكن تستشعر أي اطمئنان وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان كما تبحث العجائز الخائفات عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الرجوع إلى فراشهن)[2]

و – اختراع محاكم التفتيش:

لم يتبق من سلطان الكنيسة الإلهي –في اعتبارهم – أي شي يدعوا إلى مخالفتها، فهي قد عصمت نفسها من الخطأ، واخترعت عقائد وشرائع كما يحلوا لها، وأصبحت مشرعة مع الله، وحكمت بهرطقة مخالفيها، تساوت الكنيسة في نظر كهنتها مع الله في كل ذلك، ولكن أفكار زعماء الكنيسة لم تقف عند هذا الحد، بل توصلت إلى أمر غاب عنها، يؤخرها عن قدم المساواة مع الله، وذلك أن الله يعاقب العصاة بعصيانهم، أما الكنيسة فتحكم بهرطتهم دون معاقبة، فتاقت أنفس جلاوزة الكنيسة إلى معاقبة مخالفيها، عقابا يكون في نظرها قريب من عقاب الله، فتوصل الفكر الوقاد لرجال الكنيسة إلى اختراع ما يسمونه ب " محاكم التفتيش " وأدرج فيها كل ما لم يخطر ببال من أنواع العقوبات وأشدها وأنكاها بكل من وقعت عليه تهمة الهرطقة، أو اشتم منه رائحتها.

لقد أقامت الكنيسة محاكم التفتيش في فرنسا عام ١١٢٣ م، وفي أسبانيا ١٤٧٨ م، وفي غيرهما [3]

---

١ Pagels the Gnostic Gospels ١١ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ٢٤

٢ حرية الفكر،سلامة موسى،ص ٥٦

٣ انظر: رسالة الكاثوليكية وإدارة الحرب، ج،ف،فوللر، ص١٣ والثورة الفرنسية حسن جلال، ص١١–١٣ وأصول التاريخ الأوربي الحديث، هربرت فيشر، ص ١٥–٢٦

وقامت بمطاردو مخالفي أرائها وتعذيبهم إلى حد إحراقهم وهم أحياء[١] فأصبحت محاكمها تقوم (تعذيب المجتمع والتنكيل به... حيث ذبح المسيحيون مسيحيين آخرين حيث يعتقد كلا منهم أن طريقه هو الطريق الصحيح)[٢].

لم تكتف الكنيسة في محاكمها على الناس، فلم تعد دماء البشر تشفي غليلها، بل انعكست هذه النظرة الغريبة حتى على الحيوانات، وغالب ما كان يروج الاعتقاد بان الحيوانات وكلاء للشيطان، وأدخلت كثير من الحيوانات محاكم التفتيش، وقد كتب لويس ريجنستين[٣] في كتابه "إعادة تزويد الأرض" المنشور في عام ١٩٩١م أنه (في القرون العشرة التي تقدمت على القرن الحالي هناك روايات عن محاكمة وتعذيب وإعدام لمئات من الحيوانات وجاء ذلك في الغالب على يد محاكم كنسية كانت تعمل تحت ظل افتراض أن الحيوانات يمكن استخدامها من قبل الشيطان للقيام بهذا العمل)[٤]

وقد أمرت محاكم التفتيش بإحراق الذئاب والهررة البيتية والأفاعي والثعالب والفراخ والديكة[٥].

---

١ فقد كان المحقق في محاكم التفتيش بعد ان يتسلم من البابا رسائل تكليف يختار مقره ثم يصدر مرسوم ايمان يجبر المؤمنين على كشف الهراطقة ومرسوم عفو يمنح مهلة ١٥ يوما الى ثلاثين يوما للمذنبين كي ياراجعوا عن هرطقتهم وفي حال الرفض فإن هنالك السجن والحرمان من الطعام والتعذيب، وبعد ان يتحصل الاعتراف من المذنب بهذه الطريقة يصدر المحقق الحكم في جمعية عامة تسمى الموعظة العامة فيها ينكر المهرطق قناعته ويده على الانجيل وبعدها يستمع الى العقوبة اللائقة به بدا من الصعود الى المحرقة وانتها بجلده في قداس بشرط ان يكون حافيا بقميص واحد الهرطقة في المسيحية ص ١٣١-١٣٢ والتعصب والتسامح، محمد الغزالي، ص ٣١١-٣١٨قصة الصراع بين الدين والفسقة ص ١١.

٢ التاريخ المسيحي المظلم ص ١٩٩

٣ لم أجد له ترجمة باللغة العربية.

٤ نقلا عن التاريخ المظلم ص ١٥٦ وانظر: عصر النهضة والإصلاح ص ١٢٩

٥ انظر: نقلا عن التاريخ المظلم ص ١٥٨

لقد نسيت الكنيسة ما علمها المسيح فيما نسبته اليه انه (من لطمك على خدك الأيمن فادر له خدك الأيسر ومن سحبك ميلا فانسحب معه ميلين ومن أخذ ردائك فأعطه إزارك أيضا ...)[1] فأصبحت الكنيسة مخالفة لنصوص المسيح المنسوبة إليه، ولفطر الناس المجبولين عليها، ولعقول البشر، فأصبحت تلك العصور شامة سوداء ولطخة شوهاء في جبين الكنيسة المسيحية حتى إنهم أسموا تلك العصور بالعصور المظلمة، لا يمحوا ظلامها تقادم السنين إلى يومنا هذا.

ثانياً : التسلط السياسي:

لقد أسست الكنيسة – أول ما أسست – في نظر رجالها على أساس استعادة ملكوت الله في الأرض وشرائعه ووصاياه، فكانت ترى أنها الكيان الوحيد المعتمد والشرعي بشكل كامل لخلاص الجنس البشري والكيان الوحيد والشرعي بشكل كامل للدعوة بحقيقة المسيح[2].

ولهذا لم يكن يطمح رؤساء الكنيسة الأوائل في انتزاع السلطة الزمنية من أيدي الأباطرة، ويدل على ذلك ما قاله أثناسيوس الكبير للإمبراطور أغسطس قسطنطين: (اني لم أقاوم أوامر تقواكم، أعوذ بالله، إني لا أعارض أحكام وال من الولاة، فكيف أجرؤ على مقاومة أمير عظيم) [3]

فقد علم هذا القديس، بوجوب طاعة الملوك والأمراء، ويدل على ذلك أيضا، عندما احتج دوناتوس على تدخل الإمبراطور في شؤون الكنيسة حيث أجابه الأسقف اوبتاتوس بقوله: (إن الكنيسة جزء من الدولة وليست الدولة جزء من الكنيسة) [4]

ولكن الكنيسة تغيرت بعد ذلك، وتبدل حالها، واشتغلت بخلافات عقائدية شائكة واهتمامات مضطربة، أبعدتها عن جوهر الديانة المسيحية، وامتلأت بطقوس وخرافات،

---

١ متى٤/٣٩

٢ انظر: موسوعة الأديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الإصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٣٣٢

٣ Saint Athan,Apol ad const, ١٩ نقلا عن كنيسة مدينة الله العظمى، ص ٣٠٢

٤ Optatus.III,٣ نقلا عن كنيسة مدينة الله العظمى، أسعد رستم، ص ٣٠٢

اصطنعها الكهنة والأساقفة، ليسيطروا من خلالها على الحكام والمحكومين وفشت الشرور والموبقات، حتى على أعلى مستوياتها [1].

لقد فرضت نفسها وصية على الملوك والأمراء والأغنياء والفقراء والعامة والخاصة وأرغمتهم على الخضوع والذلة لها، فمعيار صلاحهم منوط بما يقدمونه لها من مراسم الطاعة والخدمة، وكان أباطرة أوروبا يضيقون ذرعاً بتسلط الكنيسة في جميع شؤونهم، حتى كانوا هم الذين يقودون تتويج الملوك والأباطرة، كما أن من صلاحياتهم خلعهم وعزلهم، ومن خالف منهم فللكنيسة أن تخلعه بالقوة وتحْرم أتْباعه من المغفرة إلى غير ذلك مما جعل الوضع في أوربا يعاني منتمزق رهيب بين الكنيسة والأباطرة[2]

لقد كانت هناك حربا ضروسا خفية بين الأباطرة والملوك وأتباعهم وبين البابوات وأتباعهم انتصر في غالبيتها البابوات، حيث كان البابوات يتدخلون في شؤون الدولة في كل ما دق أو جل أو صغر أو كبر فقد كانت الأسر الحاكمة (تستمد بقاءها من صلتها النسبية بأحدث القديسين فيرثون منه قداسته ولا يبالي الشعب بعد ذلك بتصرفاتهم لانهم مقدسون)[3]

لقد كان البابوات يرون ان إذعان الأباطرة والملوك لهم أمر متوجب عليهم وليس من قبيل التفضل أو الإكرام لهم ولهذا يقول أحد البابوات[4]: (إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها وأن أساقفة روما ورثوا بطرس في تسلسل مستمر متصل.. ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو محكومين)[5]

---

١ انظر: أضواء على الإصلاح الإنجيلي، القس فايز فارس، ص ٩

٢ انظر: الهرطقة في المسيحية ص ١٣٢ والتاريخ المسيحي المظلم

٣ تاريخ اوربا العصور الوسطى ٧١/١

٤ وهو البابا نقولا الأول.

٥ قصة الحضارة ٣٥٢/١٤

ويذكر البابا الطاغية جريجوري السابع[1] ان الكنيسة بوصفها نظاما إلهيا وأن البابا بوصفه خليفة الله في أرضه يحق له خلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال[2]

كانت العلاقة اخذ ورد وشد وجذب بين الأباطرة والباباوات فتارة يضطهد الباباوات وينكل بهم من قبل الأباطرة كما فعل بالبابا مارتن الاول (٦٤٩-٦٥٥) من قبل الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤١-٦٦٨) عندما نفاه القرم، أو كسيطرة الإمبراطور هنري الثالث وشارلمان على الكنيسة الباباوية فترة من الزمن[3]

استمر ذلك الوضع حتى إذا ما جاء القرن الحادي أصبحت الكنيسة قد وصلت إلى قمة السلطة الدينية والدنيوية فقد استطاع باباوات الكنيسة انتزاع حق تعيين الأساقفة من الملوك والأباطرة بل استطاع بابا روما أن يفرض سلطانه على الإمبراطور نفسه[4]

لقد أرادت الكنيسة ان تطأ على رقاب الحكام قبل المحكومين حتى لا يبقى منازع للبابا في سلطاته الدينية والدنيوية (ففوق سلطة الملوك الدنيوية... كانت ترتفع سلطة البابا التي لا يجادل فيها احد فكل ملوك أوربا كانوا يحترمونه ويلتمسون الحظوة لديه وقد حصل ملك فرنسا منه على تسميته صاحب الجلالة المسيحي جدا وملك إسبانيا على لقب صاحب الجلالة الكاثوليكي جدا وملك البرتغال على لقب صاحب الجلالة الخلص للغاية أما من كانوا يحتقرون سلطان رئيس الكنيسة فكانوا يتعرضون لعقوبات ترهب رعاياهم، فروبير التقي ملك فرنسا تعرض للحرم لأنه تزوج عرابته وإمبراطور المانيا هنري الرابع الذي رفض

---

١ جريجووري السابع (١٠٢٠ – ١٠٨٥م) انتخب ابابا من عام ١٠٧٣م بايطاليا قام بتجديد العمل بالمراسيم الباباويه التي حرمت الزواج على رجال الدين ودخل في نزاع طويل مع الامبراطور هنري الرابع. انظر: تاريخ اوربا للعريني ص ٤٦٨-٤٧٠

٢ انظر: قصة الحضارة ٣٥٢/١٤ وتاريخ اوربا في العصور الوسطى، فشر ١٤٧/٢

٣ Diehl& ullmunn:the growth of papal foverhment,p.١٨٨ and marcais:op.cit.p.٢٣١ نقلا عن اوربا العصور الوسطى، عاشور ص ٣٣٢و١٦٩

٤ أضواء على الإصلاح الإنجيلي ص ١٠

ان يتولى غريغوريوس السابع تنصيب أساقفة ممتلكاته كان عليه ان يذهب إلى كانوسا فيركع في الثلج أمام البابا)[1]

ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك، هو أنها حذت حذو الإمبراطورية الرومانية في تنظيماتها حتى صار الأساقفة يضطلعون بعبأ هذا التنظيم الإداري في أقاليم الإمبراطورية فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسي[2] حتى إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الحاكم الفعلي للعالم المسيحي الغربي عند مستهل القرن الثالث عشر كان البابا انوسنت الثالث(١١٩٨-١٢١٦) [3]

فقد استطاع البابا انوسنت الثالث أن يؤدي دوره بمهاره في السياسة العالمية وأن يفرض كلمته على أعظم حكام الغرب –بل الشرق أيضا- المسيحيين فقد أسهم في توجيه سياسة الإمبراطورية الرومانية المقدسة[4]

غير ان الكنيسة سايرت الملوك والأباطرة بعد ذلك عندما رأت ان من مصلحة سلطتها ذلك، فقد أصبحت الكنيسة عماد سلطة الملوك تسبغ على حكمهم الشرعية وتباركهم باسم الله فقد أضحت هي المشرعنة لمظالمهم والمسوغة لناظم الاستبداد الإقطاعي الجائر[5]

ولهذا فان مجموعة القوانين المسماة بمؤسسة الملك القديس لويس تحدد بوضوح النهاية التي

---

١ الهرطقة في المسيحية ص ١٠٨

٢ Deaneslv: ahist. Ofearlymed.Europe,p,١٦٥ نقلا عن اوربا العصور الوسطى، عاشور، ص ٧٠ وتاريخ اوربا العصور الوسطى –القسم الأول –،فشر،ترجمة محمد مصطفى زيادة و السيد الباز العريني، ص ١٠٨-١٠٩ وقصة الحضارة ١٤/٦٤

٣ Painter:ahist.of the middle ages,p.٢٩٥ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٤٩٦

٤ Eyee:op.cit,p٢٠٢ &Barraclough:op.cot,pp ٢٠٨-٢١٣ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٤٩٦

٥ انظر: قصة الحضارة، ج١٣/٣٦ ونشأة التحررية الأوربية، هارولد لاسكي، ص ١٤ وتاريخ اوربا الحديث، جفري برون،، ص ٢٦و ١٢٦ وأوربا في العصور الحديثة، جلال يحي، ص ٢٥ وما بعدها.

ينبغي إعطائها لحالة هرطقة (في تلك الحلة يجب ان تساعد العدالة الزمنية الكنيسة المقدسة لأنه حين تحكم الكنيسة المقدسة على احدهم بانه هرطوقي عليه ان تتركه للعدالة الزمنية وعلى العدالة الزمنية ان تقرر لأنه لا ينبغي ان تنفذ العدالة الروحية الإعدام بأحد من الناس)[1]

واستمرت وطأة ذلك الحال إلى استطاعت الطبقات الوسطى والطبقات الكادحة أن تحطم هذا الحلف المقدس بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية باعتبارهما العقبة الكؤود أمام تطبيق تلك الأفكار الحديثة الناشئة على أيديهم، وقد مر هذا المسعى بمرحلتين حاسمتين أخذتا مداهما الزمني اللازم:

الأولى: محاولة تطوير المجتمع بتطوير عاداته وتقاليده وثقافته ونظمه عن طريق العلم ومنجزاته.

الثانية: محاولة السيطرة على الدولة تدريجيا باعتبارها اعلى سلطة الزام في المجتمع وتسخيرها لأهدافها بعد نزع الطابع اللاهوتي عنها[2]إلى أن جاءت الثورة الفرنسية -كما سياتي-

ثالثاً : التسلط المادي:

لقد تفننت الكنيسة في نزع أموال الناس بالباطل كل تفنن، فلم تفرق بين حاكم ومحكوم، ورئيس ومرؤوس، كلهم أمام جشع رجال الكنيسة سواء، فقد كان مدى ضخامة خزائن الكنيسة مضرب الأمثلة، إذ أن كثير من اقتصاد البلاد والعباد يرجع إلى خزائنها ويجثوا في مخابيها.

لقد كان رجال الدين الذين زعموا عمدا وعدوانا أنهم خلفاء المسيح، في غاية الشره والجشع الذي أعمى أبصارهم، أمام رنين الدنانير، وطنين الدراهم، وكأنهم لم ينظروا، أو نظروا ولم يتبصروا، في الأقوال المنسوبة إلى المسيح في الأناجيل التي حثت على الزهد والبعد عن الغنى

١ الهرطقة في المسيحية ص ١٣١ وعلم الاجتماع الديني، د/ عبدالله الخريجي ص ٣١١

٢ انظر: نشاه التحررية الأوربية، هارولد لاسكي، ص ١٤ والصراع بين التيارين الديني والعلماني، ص ١٧

والجشع، فقد كان المسيح يقول فيما نسب إليه (مرور جمل من ثقب إبره أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله)[1]

ويقول لتلاميذه: (و لا تقتنوا ذهبا ولافضة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا)[2]

فلو كان أولئك المتسلطنين بسلطان الكنيسة مقتفين حقا لتعاليم المسيح لاقتفوا تعاليمه في الزهد والتقشف – بغض النظر عن صحة نسبتها إليه – ولكنهم اتخذوا هذه الأقوال ورائهم ظهريا، فلم يعملوا بها، بل لم يلتفتوا اليها، إلا عند وعضهم لعموم الشعب باتباعها.

يقول كرسون[3]: (كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والرحمة كل ذلك خيرا للمؤمنين والقسيسين والقديسين والخطب والمواعظ، أما أساقفة البلاد والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان شيء آخر، البذخ والاحاديث المتأنقة مع النساء والشهوة في مجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب)[4]

لقد استطاعت الكنيسة أن تحصل من خلال الأملاك والأراضي البابوية، والإقطاعات، على العوائد والرسوم نفسها التي حصل عليها الملوك والأمراء في أراضيهم، زيادة على الأموال التي حصلت عليها البابوية من الأديرة والملوك والأمراء الذين ينشدون حمايتها، في مختلف أنحاء أوربا، بالإضافة إلى الاعتبار، بعض البلاد الغربية التي أجبر حكامها على أن يدفعوا ضريبة سنوية للبابا[5] ويمكن الإشارة الموجزة إلى أهم مدخولات الكنيسة فيما يلي:

أ – الضرائب:

---

١ متى ٢٤/١٩

٢ متى ٩/١٠

٣ هو فيلسوف وكاتب فرنسي اشتهر بكتابه المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، والذي ترجمه الشيخ عبدالحليم محمود سنة ١٣٩٩هـ.

٤ المشكله الاخلاقية والفلاسفة ص ١٦٧

٥ انظر: Ullmann: the growth of papal government.p.٣٣٣ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٤٩٧

كان من ضمن مدخولات الكنيسة الثابتة مايسمى بالضرائب فقد تفننت الكنيسة في ايجاب استحقاقاتها من الضرائب على رعايا بل حتى على كهنتها الجدد المنخرطين في السلك الكهنوتي لأول سنة.

ولذا يبدوا – كما يقول بعض المرخين – (أنهم في كل يوم يخترعون طرقا جديدة لتنمية دخول الكنيسة فقد كان هناك محصلون خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف كانوا يطلبون عشر دخل الكاهن ويحصلون على كل حصيلة الكاهن من السنة الأولى من خدمته وبالطبع كانت المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع المبلغ الأكبر والضرائب كانت تفرض سنويا على رؤساء الدول وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد حينئذ تفرض لذلك ضريبة إضافية يقدرون أن الكنيسة في فرنسا وألمانيا استولتا على ما يتراوح بين ثلث الى نصف كل أملاك الدولة في انجلترا أتلفت وصرفت الكنيسة حوالي ٢٥% من الدخل القومي)[١]

لقد فرضت الكنيسة ضرائب على جميع أديرة الرجال وعلى النساء، وعلى الكنائس الداخلة في دائرة الحماية البابوية مباشرة، وفرض الباباوات على كل أسقف في أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة النظرية جميع إيراده في السنة الأولى، وذلك نظير تثبيته في منصبه وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يهينون رؤساء الأساقفة ، وكان يطلب إلى كل بيت من بيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسي البابوي جزءا من دخله[٢]

ب – العمل المجاني:

من ضمن مداخيل الكنيسة هو ما سخرت رعاياها في خدمتها وهو ما يسمى بالعمل المجاني لصالح الكنيسة، فقد أرغمت الكنيسة أتباعها على العمل المجاني لاسيما في بناء

---

١ تاريخ الكنيسة، جون لومير، ترجمة عزرا مرجان، ٣٧/٤ –٣٨ و Eyre:op.cit,pp,٢٠٦-٢٠٨
نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٤٩٧

٢ انظر: معالم تاريخ الإنسانية، ولز، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، المجلد الثالث ص ٩٧٥ وتاريخ اوربا، فيشر، ٣٨٠/٢

الكنائس والأديرة وغيرها من المشروعات الكنيسية فيما لا يقل عن يوم في الأسبوع[1]

ج – الأوقاف:

من مداخيل الكنيسة أيضا ما يسمى بالأوقاف، فقد كانت الكنيسة تملك ثلث أراضي بريطانيا، وتأخذ الضرائب الباهظة بدعوى صرفها على الكنائس وتجهيز الحروبالصليبية[2]

د – الإملاك اللإقطاعية:

من مداخيل الكنيسة أيضا ما يسمى بالأملاك الإقطاعية، فبعد أن شرعنت الكنيسة نظام الإقطاع الجائر، بل كانت هي الركيزة الأساسية والمنفردة بالامتيازات الكثيرة المجحفة بحق الشعب، حتى أصبحت الكنيسة تتمتع بحجم كبير من ريع الاقطاع [3] فقد كان ممتلكات الكنيسة في إيطاليا من الأراضي ضمنت لها موردا ماليا ضخما، بل حققت لها نوعا من النفوذ المعنوي والمادي في البلاد، وذلك أن أساقفة إيطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التي سادت إيطاليا ذلك العصر، وأخذوا يتملكون الأراضي ويجمعون الضرائب، وساعدهم على ذلك صغار ملاك الأرض عندما بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت حمايتها، فلم يجدوا أفضل من الكنيسة أثناء النزاع بين اللمبارديين[4] والبيزنطيين[5]فأصبح أولئك الملاك شبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان[1]

---

١ انظر: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٩٣وما بعدها وانظر بتوسع تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، د. سعيد عاشور، ص ٣٠ – ٥٢

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ٦٤ وتاريخ اوربا. فيشر، ٢/٣٦٢-٣٦٤

٣ انظر: قصة الحضارة، ١٩/٣٦ ودراسات في التاريخ الاوربي الحديث، محمد مظفر الادهمي، ص٨ وتاريخ اوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، محمد صالح محمد، ص ٣٨

٤ قبيلة جرمانية من منشأ إسكندنافي والتي حكمت إيطاليا بين عامي ٥٦٨-٧٧٤.انظر: المنجد في الاعلام، ص ٥٠٠

٥ لإمبراطورية البيزنطية (باللغةاليونانية ، (Βασιλεία τῶν Ρωμαίων هي إمبراطورية تاريخية كانت عاصمتها القسطنطينية (بيزنطة). وكان يطلق عليها الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت قائمة ما بين عامي حكمت هذه الدولة من قبل ١٣ أسرة حاكمة بدءا بأسرة قسطنطين(
=

وقد كان مالك الضياعة في بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير، وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التي تجبي من الأبرشية [٢]، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوي وتلك الأموال في حاجة إلى المعونة المالية ؛ وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبه من الإيرادات الإقطاعية وتراكمت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي، وأكبر السادة الإقطاعيين في أوربا ، فقد كان دير فلدا مثلاً يمتلك١٥.٠٠٠ قصر صغير من قصور الريف، وكان دير سانتجول يمتلك ألفين من رقيق الأرض ، وكان ألكوينفيتور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض.وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكونت وغير ها من الألقاب الإقطاعية، ويسكون العملة، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والإشراف الزراعي وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحرا بم ن المناظر المألوفة[٣]

وهذا الاقطاع الكنسي يعد من أعظم شماعات الثورة على الكنيسة إذ اتفق على مقته كل من انتسب إلى المسيحية من غير رجال الدين أو انتسب حتى إلى المذاهب العلمانية ولهذا تجد أن كل اتباع مذهب من تلك المذاهب يدعي بروز مذهبه في مواجهة ذلك الإقطاع، يقول أحد أقطاب المذهب الإلحادي الاشتراكي العلمي: (عندما خرجت اوربا من القرون

= ٣٠٥م وانتهاء بأسرة باليولوجس ١٢٦١م.انظر: تاريخ بيزنطة، جان كلود شينية، ترجمة جورج زيناتي، ص ١١ وما بعدها .

١ Cam.med.hist,vol.٢.p.٢٩٩ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ١٦٥

٢ الأبرشيات: هي وحدة صغرى من وحدات الكنيسة أي جزء من الأسقفية، انظر: الموسوعة العربية العالمية، ٦٤/١

٣ انظر: قصة الحضارة ٤٢٨/١٤ والتاريخ المسيحي المظلم ص ٦٤ وأضواء على الاصلاح الانجيلي، القس فايز فارس ص١١

الوسطى كانت الطبقة المتوسطة النامية في المدن تشكل العنصر الثوري في هذه القرون... ولكن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كانت مركز الإقطاعية العالمي الكبير فرغم جميع الحروب الداخلية كانت تضم اوربا لغربية الإقطاعية كلها في كل سياسي كبير... وقد توجت العالم الإقطاعي بهالة من النعمة الإلهية ووضعت تسلسل المراتب الكهنوتية وفقا للنموذج الإقطاعي وكانت اخير اكبر سيد إقطاعي لأنها كانت تملتك ما لا يقل عن ثلث الأراضي في البلدان الكاثوليكية)[1]

رابعا: التسلط الفكري:

ما إن سقطت الإمبراطورية الرومانية بين فكي بابوات الكنيسة من الناحية النظرية حتى قامت هذه الكنيسة بإزالة جميع أنواع التعليم والتقنيات والعلوم والطب والتاريخ والفن والتجارة وجمعت الكنيسة وكدست ثروات هائلة وذلك عندما تاه بقية المجتمع في العصور المظلمة[2] ويتبين ذلك فيما يلي:

أ – رأي الكنيسة في العلم:

ترى الكنيسة المسيحية أن العلم لا يمكن أن يتعارض مع الإيمان وأنه (من غير الممكن أن يكون بينهما خلاف ذلك أن هذا وذاك مصدرهما جميعا هو الله)[3]

ومن خلال هذا المفهوم الذي يظهر بمظهر الاعتدال، رأت أن العلم معارض للإيمان وأن كل علم يأتي من خارج أفواه أرباب الكنيسة يعتبر علما هرطوقيا خارجا على المسيحية وكنيستها.

لقد سيطرت الكنيسة على التعليم في كل ما دق وجل وفسرت كل الأمور حسب أهواء آبائها وكهنتها وأصبحت الحقيقة هي التي تظهرها ظاهر نصوص الاناجيل واعتقدوا أن معناها الحرفي كفيل بمعرفة الحق [4].

---

١ انجلس، الاشتراكية العلمية والاشتراكية الطوباوية، ص١٩

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٦

٣ مختصر التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ص ١٧

٤ انظر: معالم تاريخ الانسانية، ولز، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، ٩٠٥/٣، ط٣، وقصة الصراع بين الدين والفلسفة ٤٥

ب – إلغاء العلوم:

الغت الكنيسة كل العلوم المعروفة للعالم الروماني وغير المعروفة أيضا، فقد ألغت نظام التطبيب الروماني واليوناني واعتباره هرطقة وأقامت بدل ذلك عمليات الفصد الذي كان يموت منه عشرات الآلاف كل عام [١]

وقد كان للكنيسة دور ضاغط على العلم والتعليم فقد أحرقت الك.نيسة كميات هائلة من الكتب ففي عام ٣٩١م احرق المسيحيون واحدة من أعظم مكتبات العالم في الإسكندرية التي احتوت سبعمائة ألف مدرج مخطوط حسبما قيل عنها وأغلقت أكاديميات التعليم القديمة وبقي الثقافة والتعليم حكرا على رجال اللاهوت وعارضت الكنيسة دراسة النحو واللاتبينية [٢]

ج – بسط نفوذها على الجامعات الأوربية:

بسطت الكنيسة نفوذها على الجامعات الاوربية بعد أن ألغت جميع العلوم، وحولتها الى معاقل للاستعباد واوكارا للرجعية، وقد تمسكت الكنيسة بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراة في القانون من بولونيا بايطاليا، وفي باريس ينبغي أن يكون رئيس الجامعة هو رئيس الاساقفة [٣] فأصبح أساتذة الجامعات لايعنون بمعرفة الحقيقة أو تعليمها بقدر ما يهمهم نشر آراء الكنيسة واعتناق آرائها [٤]

لقد حاولت الكنيسة القضاء على كل راي علمي وتأهبت للقضاء على رجال العلم والفكر والعقل وقطعت كل ما يمت لذلك بصلة ووطد رجال الدين ابشع المقاومات واعنف المحاولات لثني رجال الفكر عن ذلك في أنحاء الكنائس الكاثوليكية[٥] ولحقت بها الكنيسة

---

١ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ٥٧

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص٦١ مع ذكر امثلة

٣ اانظر: أوربا العصور الوسطى ٢٤٧/٢ و١٧٤- ١٨٦ وقصة الصراع بين الدين والفلسفة ١٠ و٤٧

٤ انظر: قصة الصراع بين الدين والفلسفة ٤٧-٤٨

٥ انظر: قصة الصراع ص ١٦٧-٦٨ ١

البروتستانتية في مقاومتهم ايضا كما يقول ول ديورانت:(ولم تستطع البروتستانتية ان تؤيد العلم لأنها أسست صرحها على كتاب مقدس معصوم) [1]

د – استغلال الحوادث الطبيعية في صالحها:

حاولت الكنيسة أن تستغل أي حدث مما كان حجمه في صالحها، فعندما انتشر وباء الطاعون الدبلي عام ٥٤٠ م وضرب بشكل خبيث وعنيف لم يعرف له مثيل في التاريخ الإنساني هرع الناس إلى الكنيسة وهم في غاية الرعب فبينت الكنيسة أن الطاعون من أعمال الرب وهو العقوبة المثلى لعدم طاعة سلطة الكنيسة [2]

---

١ قصة الحضارة ١١٥/٢٧

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ٥٧

هـ – القضاء على العلماء:

شنت الكنيسة باسم الدين حربا ضروسا ضد كل ما يتعلق بالعلم التجريبي بصلة، وأعلنت العداء الشديد لكل من سلك هذا الميدان، ولهذا فقد واجه أغلب من سلكه اللعن والطرد والموت، والغريب في الأمر، أنه مع هذا الموقف المتشدد من قبل الكنيسة كان تعليلها أمام كثير من الاسئلة الطبيعة تعليلا سخيفا مفتقر لكل الدواعم المتقبلة، التي يمكن تصديقها أو حتى معقوليتها، فقد كانت الأجوبة الغير معقولة أو الحيرة هي الجواب في تفسير الحياة والكون والانسان.

كل ذلك يهون في نظر زعماء الكنيسة أمام العلم الذي توصل إليه بعض العلماء مهما كانت معايير دقته وصحته ومن أبرز أولئك العلماء ما يلي:

١ – نظرية كوبرنيكوس:

في عام ١٥٤٣م صدر كتاب حركات الأجرام السماوية لمؤلفه كوبرنيكوس وقد قرر فيه ان دوران الارض والكواكب حول الشمس وان الشمس هي مركز الكون[١] ، وهذا الراي يخالف رأي الكنيسة الذي يعتنق رأي بطليموس القائلة بأن الأرض مركز الكون وبقية الأجرام تدور حولها [٢]،وهو راي لكتاب المقدس أيضا[٣] فحرمت الكنيسة قراءة كتاب كوبرنيق ولاحقته لإعدامه إلا أنه مات قبل ن تظفر به. وقد اقرها العلم بعد ذلك، وكان رجال الدين آنذاك

١ انظر: نشأة التحررية الاوربية، هارولد لاسكي، ص ٥ وقصة الصراع بين الدين والفسقة ص ١٧٨ وانظر لمعرفة هذه النظرية كتب غيرت وجه العالم دوائر الفصل الخاص بكتاب كوبرنيكس

٢ انظر: الطبيعة والاغريق، ايروين شرودنجر، ترجمة:عزت قرني، ص ٦٧، ونشاة الفلسفة العلمية، هانز ريشنباخ، ترجمة: فؤاد زكريا، ص ٩٣ والفسفة الاغريقية، محمد غلاب، ٥٣/٢ عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ١٢ ونشأة التحررية الاوربية، هارولد لاسكي، ص ٥، واصراع بين العلمانية والاصولية، ص ٢١

٣ مزمور ١/٩٣ وقد استدل به كالفن على مركزية الارض ويشوع ١٣/١٢/١٠ حيث استدل به مارتن لوثر لاثبات مكزية الارض وذلك لان يشو عامر الشمس لا الارض ان تتوقف انظر: قصة الحضارة ٣٠/٦/٦

يعتقدون في مخيلاتهم أن آراء كوبرنيكوس (لا تتفق مع ماجاء في الكتاب المقدس وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وان المسيحية نفسها سوف تتاثر اذا نتشرت اراء كوبرنيكوس !

ماذا يمكن ان يصيب العقيدة المسيحية اذاكان الله قد اختتار كوكب الارض مقرا دنيويا له؟ هذه الأرض يريدون اليوم أن يجردوها من مكانتها السامية ومنزلتها الرفيعة وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها بكثير وبين نجوم لا حصر لها؟)[1]

وفي عام ١٥٩٤ م قام "قراد فو برونو" أو "جردانو برونو" بإحياء نظرية كوبرنيكوس فقبضت عليه محكمة التفتيش وسجنته ست سنوات،فلما أصر على رأيه أحرقته وذرت رماده في الهواء[2].

٢ – جاليلو:

في عام ١٦٤٣ م توصل جاليلو إلى صناعة المرقب (التلسكوب) فأيد علمياً ما قدمه من قبله، فقبضت عليه الكنيسة فسجنته وأرغمته على الرجوع عن رأيه، فلما خاف من الإحراق والقتل أرتد عن فكرته وركع أمام رئيسي المحكمة قائلاً : أنا جاليلو وقد بلغت السبعين من عمري سجين راكع أمام فخامتك والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي أرفض وألعن وأحتقر قولي الإلحادي الخاطيء[3]

إن الأرض –في نظر الكنيسة – يجب أن تكون مركز الكون الثابت لأن الأقنوم الثاني – المسيح –تجسد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرباني،

---

١ قصة الحضارة ٢٧٣/٣٠

٢ انظر: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٩١. ٢٩٥و ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٩٠ و قصة الصراع بين الدين والفلسفة توفيق الطويل ص ٤٧ /٢٠٥ وانظر كذلك تكوين العقل الحديث ٣٤٨/٣. عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ١٢

٣ انظر: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٩١. ٢٩٥و ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٩٠ و قصة الصراع بين الدين والفلسفة توفيق الطويل ص ٤٧ /٢٠٥ وانظر كذلك تكوين العقل الحديث ٣٤٨/٣. عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ١٢

كما أن التوراة تقول: "الأرض قائمة إلى الأبد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق "[1]

أما كروية الأرض وسكنى جانبها الآخر فنفتها الكنيسة بحجة أن " من خطل الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطئ أقدامهم على رؤوسهم وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل، وقالت أنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سكان الوجه الآخر من الأرض ويموت مصلوباً هناك من أجل خلاصهم "[2]

ويلخص برتر اندرسل تلك النظريات العلمية التي صرح بها نيوتن وكرنيق وجاليلو بأنها تشمل على ثلاث نتائج وهي :

١-إن تقرير الحقائق يجب أن يبنى على الملاحظة لا على الروايات غير المؤيدة -أي النصوص-.

٢-إن العالم غير الحيواني نظام متفاعل في نفسه مستبق لنفسه وتنطبق كل التغيرات فيه مع قوانين الطبيعة.

٣-أن الارض ليست مركزا للكون وان الانسان ربما يكون الهدف من وجودها اذا كان لوجودها أي هدف وفوق ذلك إن فكرة الهدف فكرة لا فائدة منها من الناحية العلمية.[3]

ولأجل هذا الاراء الهرطوقية من وجهة نظر الكنيسة شنت الكنيسة على هؤلاء وغيرهم من المكتشفين والمخترعين حربا شعواء لا هوادة فيها على كل امر غريب، يخالف ماعهده اباء الكنيسة في شتى مناحي الحياة حتى وان كانت نافعة خيرة فقد كفرت رئيس بلدية في المانيا

---

١ قصة النزاع بين الدين والفسفة ص ٢٠٣ وفي أصل العهد القديم والأرض قائمة مدى الدهر "، انظر الجامعة. ١/٥-٦

٢ المصدر السابق

٣ انظر: أثر العلم في المجتمع ص ٦

لانه اخترع غاز الاستصباح بحجة إن الله خلق الليل ليلا والنهار نهارا وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهارا[1].

ومن مثارات العجب إن يتشدق بعض النصارى بعرض القبضة الحديدية للكنيسة في التعليم بأنه أمر محمود كما يقول القس فايز فارس:(ولعدة قرون في أوربا كانت الكنيسة هي المصدر الوحيد للتعليم فاغلب مفكري العصور الوسطى كانوا من بين كهنتها، إن العناية الإلهية جعلت الكنيسة رغم كل أخطائها عاملا في حفظ المسيحية والحضارة)[2] ولا نعلم مفهوم تلك الحضارة التي حفظتها الكنيسة في نظره، والتي لا يتبادر إلى التصور عند ذكرها سوى أنواع الهمجية والتخلف والجهل المطبق.

مع العلم بأن الكنيسة لم يكن لديها أي تعلم أو تعليم في الأمور الطبيعية بل كانت تهيمن عليهم فكرة عبث الحياة وانه ما منشيء عقلاني في العالم المعنوي وان عالم الطبيعة يظل سرا لا يدرك كنهه[3].

تعقيب:

كانت النتيجة الحتمية المباشرة للسلطة الكنسية المطلقة هو التحرر الرهيب الذي صار إليه النصارى عندما انفكوا من ربقة الكنيسة ورجالها، فقد عودي كل ما يمت للدين بصلة، وسارع في تقبل النظريات والآراء الإلحادية التي ظهرت عقب خارت قوى الكنيسة وسقطت هيبتها من قلوب النصارى، فتمسك كثير من المفكرين بتلك النظريات كالدين الطبيعي أو

---

١ انظر: محاضرات الموسم الثقافي بالكويت ٢٧٥/١ والعلمانية، سفر الحوالي،ص ١١٣

٢ أضواء على الإصلاح الإنجيلي ص ١٣

٣ انظر: فلسفة الثورة الفرنسية، برنار غروتويزن، ص١٣

المذهب العقلي أو المنهج التجريبي القادر على إثبات معطياته بصورة علمية دقيقة محسوسة[1] ويرون أنه قدم للماديين والملحدين اقوى الدلائل المعاضدة في كفاحهم ضد الدين[2]

ويرى اندريه كريسون أن ذلك التحرر الديني كان بالإضافة إلى سلوك رجال الكنيسة كان هناك ثلاثة أسباب إلى جانبه وهي : قلة الثقة في ناحية التعاليم الدينية المأثورة، وقلة الثقة في الناحية العلمية الميتافيزيقية ذات الطابع الديني، وتقرير الطابع الاجتماعي للأخلاق، ونعني به نشأة علم الاجتماع[3].

والواقع أن هذه الأسباب كلها تصب في منبع واحد فقلة الثقة في الناحية الدينية وقلة الثقة في الناحية العلمية الغيبية كلها كانت نتيجة القبضة الحديدية لرجال الكنيسة المتسلحين بسلاح الدين والمتمسحين بمسوح الكهنوت، والتي تمسك الأناجيل بيد، وفي اليد الأخرى تمسك بالسيف غير مصفح، وأما إقرار علم الاجتماع فهو كغيره من العلوم والنظريات التي ظهرت لرجال الفكر عندما أرادوا التخلص من سلطان الكنيسة ورأوا أن هذه العلوم تقوم مقام الدين، ثم إن عدم الثقة في التعاليم الدينية يحتاج إلى البحث عن الصحيح والكشف عن الحق، وليس إلى رفض الدين وإنكاره البتة.

ولكن الدين عندما علق برجال الكنيسة سقط عقب سقوط الكنيسة، حيث إن كثيرا منهم رأى عدم الفصل بين الدين ورجاله حتى من المخالفين للكنيسة، فأصبح الدين يقاس بأقوال أفعال رجال الكنيسة وليس العكس، ولهذا لا يزال يستشعر بعض باباوات النصارى عظم الخطأ الفادح الذي وقع فيه رجال الدين — حتى اليوم – كالبابا جون بول الثاني حسب ما

---

١ انظر: عصر الثورة الفرنسية،هربرت ليفيير، ٦٨ واصوص التاريخ الاوربي الحديث،هربرت فيشر،ص ٣٤١ وتاريخ اوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، محمد محمد صالح ص ٤٧٤-٤٧٧

٢ انظر: الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ص ١٥-١٦ مع أنهم لم يجدوا في الإلحاد الذي حل بديلا عن الكنيسة ما يشبع نهمتهم في معرفة أسرار تلك العلوم الطبيعية والغيبية ولذا فقد سجل التاريخ كثيرا من تعبيرات الفلاسفة المتشككة والمتحيرة في القرن تالسابع عشر. انظرر: فلسفة الثورة الفرنسية، برنار غروتويزن، ص١٠-١٩

٣ اانظر: لمشكلة الاخلاقية والفلسفة، اندريه كريسون، ص ١٩٥

ذكرته صحيفة شيكاغو في حزيران ١٩٩٥م حيث حث الكنيسة الكاثوليكية على إمساك الفرص الموائمة الخاصة التي قامت مع حلول الألفية الجديدة بالاعتراف "بالجانب المظلم في تاريخ الكنيسة " وكان قد تساءل في عام ١٩٩٤م في رسالة سرية بعث بها إلى الكرادلة ثم تسربت إلى الصحافة الإيطالية قائلا: " كيف يمكن للإنسان أن يبقى صامتا تجاه الأشكال الكثيرة من العنف التي اقترفت باسم الإيمان والحروب الدينية ومحاكم التفتيش وأشكال العنف الأخرى التي مورست ضد حقوق الأفراد"[١]

١ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٣

المبحث الثاني

انقلاب النصارى على الكنيسة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

الدعوات الإصلاحية البروتستانتية

كلمة "الإصلاح"، في القاموس الكنسي، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحركة الإصلاحية التي قامت في الكنيسة اللاتينية في نهاية القرن الخامس عشر وطيلة القرن السادس عشر وسمّيت بحركة "الإصلاح البروتستانتي".[1]

واما كلمة البروتستانت فتطلق على مجموعة الكنائس الثائرة على الكنيسة الغربية الكاثوليكية ثم انشقت عنها نتيجة لحركة الإصلاح التي تزعمها لوثر.

ويطلق المؤرخون على القرن الخامس عشر والسادس عشر اسم "عصر النهضة " وبالانجليزية "Renaisbance" ومعناها الحرفي " الميلاد الجديد " ففي ذلك العصر غزا العقل البشري مختلف الميادين وكانت اوربا هي منبع تلك الحركات[2]

وكانت حقيقة منبع تلك الحركات هي الضغوط الرهيبة التي مارستها الكنيسة بحق اتباعها فظهرت كثير من الآراء والأفكار حتى بين رجال الدين من بين أتباع الكنيسة أنفسهم، فأصبحت تلك العقول التي كانت ترى في الكنيسة إلها معصوما وربا ممجدا أضحت تنازعه الشكوك في رجالها وكهنتها بل وفي عقائدها وشرائعها أحيانا، وأمست أعمال رجال الدين موضع نظر بل ونقد واعتراض ومجابهة

---

١ مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

٢ انظر: أضواء على الاصلاح الانجيلي، القس فايز فارس، ص ١٤

لقد كانت تلك المجابهة والمواجهة نتيجة ممارسات رجال الكنيسة الذين وضعوا كثيرا من العقائد في العصور الوسطى من الناحية النظرية وحملوا الناس على الإيمان بها، إلا أنهم من الناحية العملية كانوا أشد الناس حرصا على جمع الثروات وفرض طاعتهم على الناس بحد السيف والسنان [١] .

كل ذلك أدى ذلك إلى زعزعة الثقة في كهنة الكنيسة ورجالها ثم تطور إلى عدم الثقة في تعاليمها وطقوسها كمسألة الاستحالة[٢] ومسالة صكوك الغفران، في الوقت الذي فقدت فيه البابوية لكثير من هيمنتها ومصدلقيتها وقوتها [٣]

كل هذا مهد لقيام حركة تجديد كتب لها النجاح، وهي التي تعرف بحركة الإصلاح البروتستانتية[٤] التي ظهرت في وقت كانت فيه الكنيسة البابوية أشبه بالعملاق التائه.

---

١ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٠٩ اصول التاريخ الاوربي الحديث ص ٩٨ وتاريخ الكنيسة ٣٥/٤ وتاريخ اوربا وبناء اسطورة الغرب،د/جورج قرم، ص١٤٩

٢ وهي باعتقادهم ان يحضر المسيح بلحمه ودمه ولاهوته تحت اعراض الخبز والخمر. انظر: يسوع المسيح،لبولس الياس اليسوعي، ص ٣٠٦

٣ انظر: تاريخ الكنيسة ٣٠/٤ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣٠ ومعالم تاريخ الانسانية – المجلد الثالث – ص ٩١٤ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٥٦

٤ أما عن سبب هذه التسمية، فيقول الدكتور أحمد عجيبة: انتشرت حركة لوثر في المقاطعاتالألمانية، وتفاقم الموقف في ألمانيا بالنسبة للكاثوليك، ورأى الإمبراطور شارل الخامس أن يخطو خطوة لحل المشكلة الدينية التي باتت تهدد البلاد الألمانية بانقسام ديني مذهبي، فوجه الدعوة لعقد المجلس الإمبراطوري الثاني في مدينة سبير في بافاريافي مارس ١٥٢٩. ولم تعجب قرارات هذا المجمع أنصار الحركة اللوثرية، حيث قرر السماح بإقامة الطقوس الكاثوليكية في المقاطعات اللوثرية، ولكنه لم يمنح هذه المقاطعات الحق المقابل: وهو أن يكون لها في البلاد الكاثوليكية الحق في إقامة القداس طبقاً للمذهب اللوثري.

ولذلك قرر أنصار الحركة اللوثرية تحدي الإمبراطور، فاحتجواعلى قرار مجمع سبير الثاني وقالوا إننا نحتج ونعلن أننا لا نستطيع أن نذعن لهذا القرار ونعتبره لاغيا وغير ملزم لنا. ووقع على هذا الاحتجاج خمسة أمراء، وحكام أربعة عشر مدينة.

=

وقبل ذكر نشاة هذه الحركة تجدر الاشارة إلى إلقاء بعض الضوء على بيئة الكنيسة الكاثوليكية التي أسهمت في نجاح حركة الاصلاح. فمن أهم أسباب نجاح حركة الإصلاح البروتستانتي ما يلي:

أ – تطور العقلية الأوربية :

فقد أنهكت الكنيسة البابوية برجالاتها وهي تدافع عن سلطانها أمام كثير من الهجمات والضربات الفكرية والعقلية المتلاحقة، فضلا عن تطور العقلية الأوربية الذي تطور بشكل عام، نتيجة تدفق العلوم الجديدة والنشاط التجاري والتطور السياسي، فنما شعور بين أفراد المجتمع بأن واجب الفرد نحو دولته ووطنه ينبغي إن يسبق واجبه نحو كنيسته[١].

وساعد على تطور العقلية الأوربية اختراع المطبعة التس سعت إلى انتشار مؤلّفات الحضارة القديمة، الدنيوية والدينية، في كل مكان، مما حدا ببعضهم إلى التصميم على العودة إلى الجذور، أي إلى نصوص الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة، ليطهّروا الكنيسة من الشوائب التي ظهرت على مرّ القرون[٢]

ب – الأسر البابلي للكنيسة:

سقطت البابوية في ما يعرف في تاريخ البابوية باسم "الاسر البابلي" وذلك حينما أضحت البابوية أسيرة خاضعة للملكية الفرنسية، وذلك أثناء اعتلاء فيليب الرابع عرش فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤) فقد تدخل تدخلا سافرا في اختياره بابا فرنسي وهو رئيس أساقفة بوردو وسمي باسم كلمنت الخامس وأصبح مقر البابوية في مدينة افينون(١٣٠٥-١٣١٤) إلى

= ومن الاحتجاج اشتق أنصار الحركة اللوثرية الاسمالذي اشتهروا به، وهو: البروتستانت أي: المحتجون، وهو الاسم الذي التصق بهم منذمجمع سبير الثاني في سنة ١٥٢٩ م حتى الوقت الحاضر انظر: أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، ص ٦٢.

١ Painter:ahist.of the middleages,p.٤٠٨ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٤٩٨

٢ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

جانب مناهضتها من قبل الملوك والامراء، فقد صدر مرسوم في انجلترا ١٣٥١م ألغى حق البابا في ملء الوظائف الكنسية الشاغرة[١]، مما أسهم في إضعاف الكنيسة البابارية.

ج – النزاع في تعيين البابا بين فرنسا وإيطاليا:

عندما تم تعيين البابا الفرنسي كلمنت الخامس اغتاض الايطاليون الذين سلبت منهم البابوية بكل سهولة، فاختاروا بابا من أحد أبناء روما عام (١٣٧٨-١٣٨٩) وأصبح لدى الكنيسة البابوية سلسلة من الباباوات في روما، وسلسلة من الباباوات في فرنسا، وهو ما يعرف باسم "الانشقاق الديني الأكبر " في داخل الكنيسة البابوية نفسها، إلى إن عقد مجمع كونستانس سنة ١٤١٥م لمناقشة هذا الانشقاق، وتم اختيار مارتن الخامس بعد ذلك البابا الوحيد له[٢] إلى جانب محاولات كبيرة لتحرير الحكومة المدنية والعلمانية من رقابة البابا والكهنة وقد نقل ويكليف هذه النظرية لانكلترا مدافعا عن حق الملك الالهي لينتزع هذا الحق من الكنيسة[٣]

كل تلك الضربات والارهاصات، كانت الممهد الاساسي لنجاح حركة الاصلاح البروتستانتي التي لم تكن تكلل بكل ذلك النجاح، لولا تلك الارهاصات، وبما أن أوربا كلها كانت ترضخ تحت حكم الباباوات، وخصوصا الايطاليين، نشأت البروتستانتية تحمل بين طياتها التعصبات القومية والعصبيات المختلفة للثقافات المشتركة (فلقد كان من نتائج حركة الاصلاح الديني أن أصبح الدين في أوربا مرتبطا بالسياسة ارتباطا أوضح وكثيرا ماكان يقوم على أساس قومي كما هي الحال في انكلترا)[٤]

---

١ Lavisse:op.cit, tome,premieve partie,p.١٢٨ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٤٩٩

٢ Cam.med.hist,vol.٧.p.٢٩٠ و Thompson:op.cit,vol.٢.p.٩٦٩ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٥٠٢

٣ انظر: تكوين العقل الحديث، هـ راندل ٢٩٤/١ وكارل ماركس،سربست نبي ص ٥٨

٤ حكمة الغرب، ب.راسل ٤٠/٢

وعلى كل حال، فقد كانت حركة مارتن لوثر هو الاصلاح الذي كان له الاثر الناجع في الكنيسة البباوية مع انه فيما بعد أصبحت الانشقاقات العقدية والطقسية بين الكنائس البروتستانتية واتباعها لاتحصى وذلك بسبب انها ولدت من مبدا حرية التفكير[1]

ولكن مارتن لوثر الذي وصف بأنه الفلاح السكسوني هو الذي تدين له حركة الإصلاح الألماني بقيامها وصفاتها[2].

وقد اختلف في الحكم على لوثر وذلك حسب توجهات كل فريق فبينما يصرّح البروتستانت بأنه كان "طبيباً قاسياً"، و"الملاك الذي أرسلته العناية الإلهية للقضاء على مسيح روما الدجّال". يصرح الكاثوليك، بانه رجل فظّ سكّير كذّاب شهواني، لم يترك الكنيسة إلاّ ليكون حرّاً في إشباع غرائزه[3].

وهذا الانقسام في الحكم عليه نابع من الانقسام في قبول اصلاحاته من عدمها بين النصارى، ولذا سوف يكون البدأ هنا في دراسة الصلاح الكنسي بترجمة موجزة لهذا الرجل الذي اصبح اسمه منوطا بتاسيس الاصلاح الديني النصراني كما يلي:

أولا: نشأة مارتن لوثر:

ولد مارتن لوثر في العاشر مننوفمبر سنة ١٤٨٣ م في آيزليبن، وهي بلدة صغيرة فيمقاطعة سكسونيا بألمانيا.

التحق بجامعة إيرفورت ودرس فيها القانون، وحصل منها على درجته الجامعية سنة ١٥٠٤م، ثم حول مسار حياته ودخل الدير الأوغسطيني في إيرفورت ليصبح راهباً ، وقد طبق الرهبنة بكل دقة، واحتفل بدخوله في سلك الكهنة، ثم عين مدرساً للفلسفة في مدرسة ويتنبرج سنة ١٥٠٨ م واستمر في دراسته اللاهوتية التي أهلته لتدريس الكتاب

---

١ انظر: الهرطقة في المسيحية ص ١٨٧

٢ انظر: أصول التاريخ الأوربي الحديث ص ٩٨

٣ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

المقدس[1].

في سنة ١٥١٠ م اختير ليكون عضوا في وفد مرسل إلى روما، وصدم لما رآه هناك وهاله انهيار المعايير الأخلاقية لدى رجالالدين ومن بينهم البابوات، وانغماسهم في حياة البذخ والتبذل والملذات.

وفي سنة ١٥١٢ م منح درجة الدكتوراه في اللاهوت، وفرغ وقته للتدريس والوعظ، وقد استطاع أن يجذب الانتباه خاصة وأنه استطاع أن يكون لنفسه بعض الآراء التيخالف بها الكنيسة[2].

ثانيا: سبب ثورة مارتن لوثر:

لقد كان أول ما اثار الثورة على الكنيسة الكاثوليكية في نفس لوثر هو اهتمام رجال الكنيسة بجمع الأموال أكثر من اهتمامهم بتعليم الكتابات المقدسة.

فقد كانت ممارسة بيع صكوك الغفران قد انتشرت في كل الكنائس الأوربية كوسيلة لجمع المال، وكانت الحملة الخاصة لجمع صكوك الغفران بالقرب من ويتنبرج، هي التي استفزت مارتن لوثر ليتخذ الخطوة الأولى تجاه الإصلاح[3]

هذا، وقد كان تتزل المكلف ببيع صكوك الغفران قد انزلق في عدة مآخذ، إذأمسك بالصكوك في يده، ولوح بها في الهواء، وقال مخاطباً الفلاحين السذج الذين التفوا حوله:

---

١ انظر: أصول التعليم المسيحي، الكتاخسيمس الصغير، مارتن لوثر، المقدمة، ص ٥ وقصة الحضارة ٣/،و أثر الكنيسة على الفكر الأوربي ص ٥٩،، وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٢٥ وحقيقةالعلاقة بين اليهود والنصارى، ص ١٦١. وأصول التاريخ الأوربي الحديث، ص ٩٦ وتايخ الكنيسة،، ص ١٠٠ والمصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه، د/ حناجرجس الخضري، ص ٢٥ وقصة الحضارة ٩/٣/٦

٢ انظر: أصول التاريخ الاوربي الحديث ص ٩٩ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٢٧-٢٨اوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٧٢

٣ انظر: أصول التعليم المسيحي، الكتاخسيمس الصغير، مارتن لوثر، المقدمة، ص ٧ وتاريخ الكنيسة، جون لويمر ١١٣/٤ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣١

إنهم إذا ما أسهموا عن طواعية واشتروا صكوك الغفران، فإن كل تلال مدينة أنابورج . وهي مدينة ألمانية . ستتحول إلى كتلة هائلة من فضة صافية وأنه ما إن يسمع رنين العملة في الصندوق حتى تكون روح من دفعت الأموال من أجله في طريقها إلى الجنة.

وبلغ الأمر مداه حين قال مخاطباً الجماهير: إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها فإن هذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل[1].

ثالثا: قيام الثورة البروتستانتية:

تحرك مارتن لوثر لمهاجمة صكوك الغفران، بعد أن أثارت تصريحات زعماء الكنيسة بجمع الأموال مكامن السخط في قلبه، فانتهز فرصة اجتماع الأهالي على عادتهم في كنيسة ويتنبرج في ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧ م وعلق على باب الكنيسة احتجاجاً ضافيا يتضمن خمسة وتسعين بنداً [2] .

أهمها:

- أن الله هو يغفر الخطايا وأن الإنسان لا يستطيع أن يشتري الغفران بمبالغ معينه وأن الأعمال الصالحة لازمة ولكنها لاتخلص الانسان بل هي ثمرة الإيمان.
- أن الكتاب المقدس هو الدستور وما لا يقبله لا نتقبله ولو كان من الكنيسة
- أن الأسرار هي المعمودية والعشاء الرباني وماعداها من الأسرار فهو باطل
- أننا نترك مسحة المائتين بالزيت
- ولا نترك الزواج وإن كنا لا نعتبره فريضة
- جواز الزواج للكهنة والراهبات إذا شاؤوا ذلك[3]

١انظر: قصة الحضارة ٦/٣/٦ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٧٢ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣١

٢ انظر: أصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٠٠ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٧٤ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣٢

٣ انظر: أصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٠١ وعصر النهضة والاصلاح ص ١٠١

ودعا لوثر لمناقشة كل من يريد من العلماء، وذاع أمر هذه الوثيقة وطبعت ووزعت في طول البلاد وعرضها، وهكذا بدأ الإصلاح العملي البروتستانتي[1].

وقد وجدت هذه التعليمات اللوثرية تأييدا كبيرا من الفلاحين المستغلين، بل حتى من رجال السياسة الذين رفضوا التبعية لروما، وانتشرت بين البروتستانت في معظم أنحاء المانيا وسويسرا وانكلترا وسكوتلندا وممالك اسكندنافيا وأجزاء من فرنسا وهنغاريا وبولندا[2]

ويبدوا أن لوثر إلى هذا الحين لم يتخذ قراره بالمواجهة مع كنيسة البابا، ويظهر ذلك من خلال رسائله التي بعث بها إلى البابا حيث يوضح فيها أفكاره بنوع من التواضع والأدب، مبينا أن بيع صكوك الفغران فيه إهانة للمسيح وعار على الكنيسة ثم يختم رسائله بمثله قوله:(أيها الاب الأقدس إني ألقي بنفسي أمام قداستكم خاضعا بكل مالي وحالي أحيوني أو اقتلوني... إني أقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلما عاملا فيكم فإن كنت أستحق الموت فلن أرفضه لأن للرب الأرض وملأها فليكن اسم الرب مباركا وليحفظكم للاب)[3]

ومضت سنة ١٥١٨ م في محاولات ومفاوضات ومناظرات للتوفيق بين لوثر وكنيسة روما، لكنها لم تسفر عن نجاح، وأطلق على هذه الحركة اسم (مشادة الرهبان) وفي السنة التالية ظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن الانفصال عن كنيسة روما أصبح أمراً لا مفر منه، واستمرت المواجهة بين لوثر وخصومه، حيث سبق الترتيب لإجراءحوار أو مناظرة مع "حنا إيك " وهو زميل أكاديمي سابق للوثر، وأحد كبارأنصار الكنيسة الكاثوليكية،وجرت المناظرة في ليبزج خلال شهر يوليو سنة ١٥١٩ م.

وفي هذه المناظرة هاجم لوثر سلطة البابا ووصل إلى مرحلة الشك بل أنكر عصمة البابا، وبين أن القرون الأحد عشر الأولى من تاريخ الكنيسة، ومجمع نيقية، والأسفار المقدسة

---

١ انظر: تاريخ الكنيسة ٤/١١٩

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٠٩ ومقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

٣ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣٣

كانت تعارض مبدأ الكنيسة وتنكره[1] بل عقب ذلك أعلن الحرب الكلامية على رجال الكنيسة البابوية معلنا أن الرهبان خنازير والكهنة حمير والكنيسة بيت دعارة كما كان يقول:(اذا كان السارقون يعاقبون بالسيف والقتلة بحبل المشنقة والهراطقة بالنار فلماذا لا تمضون ممتشقين السلاح للقبض على كل أسياد الهلاك الأبدي الأشرار هؤلاء على البابوات والأساقفة والكرادلة على كل عصابة سدوم الرومانية)[2] ويقول ايضا:(إن الله الذي جعل حمارا يتكلم لكي يوبخ نبيا وهو بلعام ألا يمكنه إن يتكلم على فم انسان تقي لكي يوبخ البابا)[3]

أعقبت تلك المناظرة عدة خطوات عملية لتنفيذ الإصلاح، فوجه في سنة ١٥١٩ م الدعوة إلى حكام الولايات الألمانية من الأمراء ومن إليهم كي يتزعموا هذه الحركة الإصلاحية. في ندائه المشهور إلى نبلاء المسيحيين في المانيا وفيه دعوة للمقاطعات الالمانية أن تتحرر من سلطة روما [4]

ووضع في سنة ١٥٢٠ م ثلاث رسائل تسمى الرسائل الثلاث العظمى في حركة الإصلاح الديني،كانت الرسالة الأولى عبارة عن نداء وجهه باللغة الألمانية إلى قادة الفكر من غير رجال الدين في ألمانيا، حثهم فيه على الشروع في إصلاح الكنيسة بأنفسهم دون الاعتماد على رجالالكنيسة.

وكانت الرسالة الثانية وضعها باللغة اللاتينية ووجهها إلى البابا ليو العاشر على أنها نداء للسلام.

---

١ انظر: تاريخ الكنيسة ١٢١/٤ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٧٦

٢ الهرطقة في المسيحية ص ١٩٤

٣ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٤٨

٤ انظر: المعلم مارتن لوثر ص ١٠١ وأضواء على الاصلاحى الانجيلي ص ٣٤

والرسالة الثالثة باللغة اللاتينية كذلك ووجهها إلى رجال الدين المسيحي أظهر فيها ضعف البابوية، وتدهور أخلاق الدين[1].

رابعا: وقوق الكنيسة البابوية في وجه الإصلاحات اللوثرية:

لم تجد الإدارة البابوية حلاً للوثر وأفكاره، سوى إصدار قرار الحرمان للوثر سنة ١٥٢٠ م وقد عهد البابا تنفيذ قرار الحرمان لامبراطور الدولة الرومانية شارلمان الخامس ، وذلك لأن لوثر يقيم في إقليم سكسونيا الداخل في أراضي هذه الدولة، ورأى الإمبراطور أن يعرض الموضوع على المجلس الإمبراطوري، ودعى لوثر للمثول أمام المجلس، ووجه إليه عدة أسئلة بشأن الكتب التي ألفها وهل يرغب في التراجع عما فيها ؟ فأجاب: بأنه لا يستطيع الرجوع في أي موضوع تعرض له في كتاباته، ولذلك أصدر الإمبراطور بياناً أعلن فيه سخطه على الحركة اللوثرية، ثم أصدر المجلس قراراً في ٢٦ مايو سنة ١٥٢١ م بحظر تداول كتب لوثر ومنع قراءة جميع كتاباته وحرقهاوبطرد لوثر خارج القانون وإهدار دمه باعتباره يعرض أمن الدولة الداخلي والخارجي لأخطار فادحة [2].

ولكن، بمساعدة بعض أمراء المقاطعات الألمانية المتعاطفين مع اراء لوثر أخذ ليلا إلى مدينة وتنبرج ثم اصطحبوه فرسان ساروا به إلى قلعة فارتبورج وكان قد أرسل هؤلاء الفرسان فريدريك الحكيم أمير سكسونيا حرصا منه على لوثر، ثم عاش لوثر في تلك القلعة وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الامانية عام ١٥٢٢ م الى ان مات سنة ١٥٤٦م [3].

خامسا: قيام مصلحون أخرون موافقون للاصلاحات اللوثرية:

---

١ انظر: تاريخ الكنيسة ٤ / ١٢٣والمصلح مارتن لوثر ص ١٠١ -١٠٥ وأوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٧٩ واصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٠١

٢ انظر: أثر الكنيسة علىالفكر الأوربي، ص ٦٢. ووأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣٥ وأوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٨٠-٣٨٥ والهرطقة في المسيحية ص ١٩٤

٣ انظر: أضواء على الاصلاح لانجيلي ص ٣٧-٤٠

تبع لوثر على هذه الآراء مصلحان آخران، وزعيمان بارزان من زعماء الكنيسة البروتستانتية، وهما اولريخ زوينجلي[1] وجون كالفن[2].

وقد تفرعت بعد ذلك الكنيسة البروتستانتية إلى فروع كثرة يختلف بعضها عن بعض في تفاصيل العقيدة وتنوع أساليب عبادتها:

فمنها الكنائس التقليدية كالأسقفية واللوثرية.

ومنها ماتحرر تماما عن شكليات العبادة كاجتماعات الاخوة.

ومنها ماتخذ طريقا وسطا بينها كالمشيخية والميثودست والمعمدانيين وقد اختلفوا في نظام ادراة الكهنوت فيما بينهم [3].

ومنها الجماعات التي انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية ولكنها احتفظت بكثير من العقائد الأساسية لتلك الكنيسة كالاستقلالية والبيوريتان في انجلترا والهوغونيين في فرنسا وغيرهم من المتأثرين بأفكار لوثر وغيرها [4].

ولعل مرد ذلك ذلك، يعود إلى عدم ارتباط الكنيسة بتعاليم افواه رجال الكنيسة، بل ربطه بالكتاب المقدس، وجعل الفرد مسؤولا عن حرية فكره، وبالتالي عن تصرفاته، وهذا ما أرداه لوثر حين قال: (وحدي ولدت إلى هذا العالم وحدي ويجب أن أجابه الحياة ومسؤولياتها ووحدي ساقف أمام الديان العظيم... لن يقف أحد مكاني ولا بيني وبين الله لا أسقف ولا

---

١ انظر الحديث عنه في تاريخ الكنيسة ٦٣/٤ ١ وقصة الحضارة ١١٥/٢٤

٢ انظر الحديث عنه في جون كالفن موجز عن حياته ومبادئه، د/هاري ايبرتس، ترجمة: وليم ببادي، وجون كالفن حياته وتعاليمه، د/ حنا جرجس الخضري، وتاريخ الكنيسة٢٦٤/٤ وقصة الحضارة٢١٤/٣/٦ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٤٩٧و مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

٣ انظر: أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٤٤

٤ انظر: عصر النهضة والاصلاح ص ٢٠ وكيف نفهم علم اللاهوت ١٧٨/١ وأصول التاريخ الأوربي الحديث، ص ١١٩

كاهن ولا مجمع كنسي ولا قانون كنسي ولا تقليد كنسي بل سأقف أمام الله عاريا وعلي تقع المسؤولية تجاه الديان خالقي)[1] وعلى كل حال، فقد نجح الإصلاح البروتستانتي أيما نجاح وأضعف كيان الكنيسة البابوية أيما إضعاف، وانتشرت مباديء الإصلاح البروتستانتي انتشارا هائلا، تبين أهمها فيما يلي:

سادسا: أهم مباديء الإصلاح البروتستانتي:

يمكن إجمال أهم العقائد والمباديء التي حاول البروتستانت ترسيخها في سعيهم لإصلاح الكنيسة فيما يلي:

١ - إبطال صكوك الغفران:

لقد احتج لوثر على بيع صكوك الفغران احتجاجا كبيرا، وهذا الاحتجاج من لوثر لم يحمل على العمليات البشعة التي كان يتم بها بيع صكوك الغفران للجماهير فحسب، بل هاجم الغفران نفسه كعملية دينية تمارسهاالكنيسة الكاثوليكية في صورة تتنافى .كما يرى لوثر مع المسيحية.

وهاجم سلطة البابا في غفران الذنوب،وبين أن كل مؤمن له الحق في التقدم لله مباشرة دون وسيط ويتوب لله ويغفر له دون الحاجة إلى وساطة بشرية.

٢ - دعا إلى العودة إلى الكتاب المقدس مؤكداً على أنه هو المصدر الوحيد الذي يجب الاعتماد عليه في تفسير جميع المسائل الدينية وكانت هذه نقطة الخلاف الأولى بين لوثر وبين الكنيسة البابوية[2] ولذلك يقول مارتن لوثر عن الكتاب المقدس لعموم الشعب المسيحي: (يجب أن نقرأه بجد واحترام وأن ندرسه ونصغي بانتباه عندما يقرأ أو يفسر على مسامعنا وأن نؤمن به ونحيا بموجب تعاليمه)[3]

---

١ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٥٩

٢ انظر: تاريخ الكنيسة ٤/ ١١٦ و اصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٠٠ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٤٤٣ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٤٦ وعلم اللاهوت النظامي، القس انس جمس، ص

٣ أصول التعليم المسيحي، الكتاخسيمس الصغير، مارتن لوثر، المقدمة، ص ٤٦

ويقول أيضا:(إن تفسير الكتاب المقدس حق للجميع لأن روح الله هو الذي يعمل في القاريء سواء كان كاهنا أو علمانيا عالما أم عاميا لكي يفهم المكتوب)[1]

٣ - رفض ادعاء الكنيسة الكاثوليكية وباباوتها أن لهم الحق هم وحدهم في تفسير الكتاب المقدس، بل أعلن أن فهمه وتفسيره حق لكل أحد ينتمي إلى المسيحية [2] مع القول بعصمة الكتاب المقدس وحده[3] وقد لاقت هذه الدعوى التي نادى بها رواد الاصلاح البروتستانتي صدى واسعا وكان التفسير الحرفي للنوص المقدسة سببا ونتيجة له في آن معا، ففتح الطريق أمام كل التباينات في وجهات النظر [4] ، ويمكن القول أيضا أمام كل الاهواء.

ثالثا: نفى عصمة البابا وعلل ذلك بقوله:(من الواضح المؤكد أن قراراتهم قد اخطأت مرارا فضلا عن أنها تناقض بعضها بعضا في كثير من الأحيان وما لم يقنعني أحد بالاقناع العقلي والكتاب أن ما أقوله خطأ فلن أستطيع أن نغير ما قلنا)[5]

وذلك لأن الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن البابا نائب المسيح وراعي الكنيسة جمعاء وله عليها - بإنشاء الهي - سلطان كامل أعلى وأنه معصوم[6]

٤ - إبطال الصور والتماثيل وعبادة مريم: فأصبحت الصور والتماثيل وحتى عبادة مريم في نظر الإصلاحيين باطلة وأنها أقرب للشيطان منها الى الله [7] لأن الكنيسة الكاثوليكية تعتقد

---

١ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٤٨

٢ انظر: تاريخ الكنيسة ٤/ ١١٦ وقصة الحضارة ١١٣/٣/٦ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٢٨ وعلم اللاهوت النظامي، القس انس جمس، ص

٣ انظر: يدلله، غريس هالسل - ط١ -ترجمةمحمدالسماك -دارالشروق -القاهرة٢٠٠٠ -ص :٦١

٤ الهرطقة في المسيحية ص ٤٢

٥ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٣٧ وعلم اللاهوت النظامي، القس جمس انس، ص

٦ انظر: مختصر التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ص ٦٣-٦٤

٧ انظر: التاريخ المسيحي الظلم ص ١٣٣ وص ١١٤ وتاريخ الكنيسة ١٦٣/٤، ومحاضرات في النصرانية ص ١٦٨ . ١٧٠.

أن صورة المسيح والصور الأخرى التي تمثل العذراء والقديسيين تساهم في إيمان المؤمنين وتغذيته[1]

٥ – رفضوا الطقوس وقداسات القربان، وأصروا على أن الإنسان ينبغي عليه أن يكشف الرب ويلاقيه بدقة فقط من خلال الوعظ أو قراءة الكتابات المقدسة [2]

٦ – جعل تبرير الانسان منوط بالإيمان فقط دون العمل:

اكتشف لوثر جواباً على قلقه النابع من تلك المقولة اللاهوتية في رسالة القديس بولس إلى أهل روما: "إنّ الإنسان يبرَّر بالإيمان بمعزل عن أعمال الشريعة"[3] ، فالانسان لا ينال الخلاص بفضل ما يبذله من جهود، بل الله هو الذي يجعله بارّاً بنعمته وحدها. يبقى الإنسان خاطئاً، لكنّ الله يأتي فيخلّصه من يأسه.بعد إن كان الاعتقاد السائد لدى اتباع الكنيسة يفرض على الناس تقديم الصلوات في مزارات القديسيين والشهداء ويزورون الاماكن المقدسة لينالوا البركة ولتغفر خطاياهم وليتصالحوا مع الله[4]

ونتيجة لذلك آمن البروتستانت ان على الانسان يؤمن بعقيدة الخلاص بالنعمة التي تمجد عمل المسيح المخلص على الصليب وينبغي النظر الى يسوع ليس ككائن بشري به ينبغي الارتباط بل كجزء من الرب القدير)[5] يقول لوثر:(واخيرا اشفق الله علي وبدات افهم إن عبارة "بر الله " تعني إن الانسان الذي يؤمن بمجرد ايمانه فقط يحيا بالبر الذي يمنحه الله له، هذا البر هو رحمة الله ونعمة الله ننالها بالايمان)، ثم يقول :(وحالا شعرت بانني ولدت من

---

١ انظر: مختصر التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ص ٧٩

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١١٤ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٥١

٣ رومية ٢٨/٣

٤ انظر: أصول التعليم المسيحي، الكتاخسيمس الصغير، مارتن لوثر، المقدمة، ص ٨ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٥٠

٥ التاريخ المسيحي المظلم ص ١١١

جديد وان ابواب السماء قد فتحت على مصراعيها امامي... وبقدر ما كنت اكره عبارة "بر الله " صرت احبها وهكذا اصبح هذا النص بالنسبة لي باب السماء)[١]

والحقيقة أن هذا الاعتقاد كان له أبلغ الأثر في قبول وهضم الافكار الباطنية التي انتشرت عقب الاصلاح البروتتستانتي بقرنين تقريبا، فكثير من المعتنقين للمذهب الباطني نادوا بأن غاية الديانة هو الإتحاد بالله والذي يتم عن طريق التامل وإماتة شهوات النفس ولم يبالوا بطقوس الكنيسة وأسرارها بل سخروا منها بل نادى بعضهم بالوهية الكون أي وحدة الوجود وانه لا يوجد شيء غير الله وان الكون هو الله ظاهرا وأن الإنسان جزء من الله فيرتقي بذلك لأسمى درجات السعادة وقد سموا في المانيا ب"البياتست" وفي فرنسا ب " جانسينست" وفي ايطاليا " كوايتست" وتاثر بهم جورج فوكس في انجلترا عام ١٦٥٠ م الذي انشا طائفة الكويكرز أو الفريندز[٢]

٧ - آمن مارتن لوثر أن الفوارق بين الذكر والانثى وفي الطبقة والعرق والعقيدة تشير إلى الوضع المتفوق للمخلوق أو الوضع المتدني فقد كتب في عام ١٥٣٣م يقول: (تبدأ الفتيات بالكلام وبالوقوف على أقدامهن أسرع من الصبيان بسبب أن الأعشاب تنمو دائما بسرعة أكبر من المحاصيل الجيدة)[٣]

٨ - آمن لوثر بمبدأ الطبقية فنادى بإبادة اليهود وأنه ينبغي استعبادهم أو الإلقاء بهم إلى خارج الأراضي المسيحية وأنه يتوجب إحراق إحيائهم وكنسهم وأقر إبادة ثورة الفلاحين وإعدام القائلين بتجديد العماد كما كان يقول:(الحمار بحاجة للضرب والرعاع لان يقادوا

---

١ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ٢٩ ويبدوا إن هذا الاعتقاد ماخوذ من افكار بولس الذي ينص في رسائله على الذي يبرر الانسان هو الإيمان دون العمل فيقول:(اذا نعلم إن الانسان لا يتبرر باعمال الناموس بل بايمان يسوع المسيح ونحن ايضا بيسوع المسيح نتبرر بالايمان بت لا باعمال الناموس لانه باعمال الناموس لا يتبرر جسد ما لست ابطل نعمة الله لانه اذا كان بالناموس بر فالمسيح اذا مات بلا سبب) غلاطية

٢ انظر: علم اللاهوت النظامي، القس انس جمس، ص

٣ التاريخ المسيحي المظلم ص ١١٥

بشدة وعنف)[1] وقد نادى به جون كالفن الذي شكلت عقيدته قاعدة الكنيسة المشيخانية حيث يقول: (إن المبدأ السرمدي الذي قرر الرب به الذي سوف يصنعه مع كل إنسان هو أنه لم يخلقهم سواسية بل عين بعضهم لحياة خالدة وعين آخرين لإدانة خالدة)[2].

ولكن هذا الأصل الذي سار عليه لوثر وهو مبدأ الطبقية خصوصا مع اليهود قوبل بأصل أوثق منه، وتلقاه البروتستانت بالرضى والقبول بشكل أسرع وأعمق مما أدى إلى ضعف مبدأ الطبقية اللوثرية، لا، بل أدى إلى فقدها وضياعها واندثارها، وهو مبدأ الاعتماد على التوراة كمصدر ملهم ووحي مسلم بل ترى في العهد القديم المصدر الوحيد للاجتهاد ولاستنباط الأحكام والفلسفة الدينيتين مما أدى إلى اعتقاد الفرق البروتستانتية المتصهينة أن العهد القديم هو المعتمد ليس ككتاب ديني فحسب بل كتاب سياسي أيضا، يقوم على قاعدة العهد الالهى للأرض المقدسة لشعب الله المختار[3] لذلك تسربت إلى صميم العقيدة المسيحية أدبيات يهودية تبنتها الفرق البروتستانتية جميعا أسست على ربط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح باقامة دولة صهيون أي باعادة تجمع اليهود في ارض فلسطين حتى يظهرالمسيح فيهم[4]

وكما يلاحظلم يتطرق لوثر عن مسألة ألوهية المسيح، ومسألة الصلب والفداء والخطيئة، وغيرهامما هي أولى بالإنكار، وأجدر بالإصلاح، إذ لا يزال الفساد باقياً ما دامت

---

١ التاريخ المسيحي المظلم ص ١١٥ والهرطقة في المسيحية ص ١٩٤

٢ التاريخ المسيحي المظلم ص ١١٥ والهرطقة في المسيحية ص ١٩٩

٣ انظر: الأصولية الانجلية- محمدالسماك -ص٤٠

٤ انظر: Gersham Goremberg- the end of days: Fundamentalism and the Struggle for the temple Mount- Free Press ٢٠٠٠- P: ١٦٢ نقلا عن البروتستانتيةوالسياسةالخارجيةالامريكيةواسرائيل الأستاذ المساعد الدكتور حميد حمد السعدون قسم الدارسات الاوروبية مركز الدارسات الدولية—جامعة بغداد و عفيف فراج — اليهودية بين حضانة الشرق الثقافية وحضانة الغرب السياسية ص :٤٣

عقيدةالتثليث قائمة، ولا يزال الإشكال موجوداً ، ولذلك يقول مارتن لوثر وبكل وضوح: (إن الإله الحقيقي الواحد هو إله مثلث الأقانيم، الاب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم متميزة ومتحدة في جوهر إلهي واحد)[1]

فتبين أن حركة الاصلاح البروتستانتية لم تجهز على الكنيسة البابوية من جهة عقيدتها لا من جهة سلطتها التي أرهقتها الضربات المتلاحقة من قبل الملوك والامراء الغربيين في اخر قوة عهدها، فنجحت الكنيسة البروتستانتية الجديدة في إرساء قواعد ومباديء تخالف مباديء الكنيسة البابوية التي كانت تتربع على عرش العالم المسيحي برمته دينيا وسياسيا واجتماعيا وفكريا.

---

١ أصول التعليم المسيحي، الكتاخسيمس الصغير، مارتن لوثر، المقدمة، ص ٥٣

المطلب الثاني
الدعوات الإصلاحية الكاثوليكية

إن المراد بالدعوات الإصلاحية هنا، هي تلك الدعوات التي سعت جاهدة لإصلاح الكنيسة، سواء كان الإصلاح في العقائد والشرائع، أو محاولة إصلاح رجال الكهنوت أنفسهم.

وليس المراد هنا ، هو ذكر كل تلك الفرق و الدعوات التي نشأت في المسيحية، يجمعها الاتفاق على العقائد والشرائع والرضى بعمل رجال الكهوت، المتباينة في اهتماماتها بالعبادات والشرائع، دون التصريح أو التلميح بإصلاح الكنيسة أو شرائعها، كفرقة الرهبنة البندكتية التي تزعمها بندكت في عام ٥٠٠م والذي اخترع طريقا جديدا في الرهبنة[١] أو فرقة السسترياينة، التي تسمى البرناردية، التي أسسها عام ١٠٩٨م رجل يدعى روبير المولسمي في جنوب مدينة ديجون جنوب فرنسا، والذي ركز هو أتباعه على التقشف في بناء الكنائس، وعلى العمل لأجل الفقراء والمحتاجين لأتباع هذه الطائفة[٢]أو الفرقة الفرنسيسكانية،التي تأسست على يد رجل إيطالي يدعى فرنسيس الأسيزي، والذي تركزت معتقداتهم حول مصاحبة الفقراء مع التبشير بالإنجيل [٣]، أو فرقة الدومينياكية، والتي تأسست

---

١ انظر: عشرون قرنا في موكب التاريخ،حبيب سعيد، ٦٢ ودليل الى قراءة تاريخ الكنيسة، الاب جان كمبي ص ص ١١٣-١١٥

٢ انظر: الفرق والمذاهب المسيحية من ظهور الاسلام حتى اليوم، اسعد رستم، ١٠٩-١١١ ومختصر تاريخ الكنيسة،اندرو ملر ٢٧٠-٢٧٣ وتاريخ اوربا العصور الوسطى،السيد الباز العريني، ٤٨١-٤٨٤ وموسوعة تاريخ العالم، وليام لانجر، ٦٠٤/٢

٣ انظر: دليل الى قراءة تاريخ الكنيسة، الاب جان كمبي ص ص ١٩٨-٢٠٠و٢٤٣و٢٧٨ الفرق والمذاهب المسيحية من ظهور الاسلام حتى اليوم، اسعد رستم، ١١١-١١٣ ومختصر تاريخ الكنيسة،اندرو ملر ٣٠٧ وموسوعة تاريخ العالم، وليام لانجر، ٦٠٩/٢ واوربا والمسيحية،يان دوبرا تشينسكي، ٢٠٦/٢-٢١٤ و٣١٧/٣ وكنائس بغداد ودياراتها،الاب د/ بطرس حداد، ص ١٥٢

على يد رجل يدعى دومينيك عام ١١٧٠م والتي اهتم بالوعظ والتعليم والفقر[١]، ومن هذا الصنف، بعض الفرق الصليبية الكاثوليكية المحاربة كفرقة القديس يوحنا[٢] أو فرسان المستشفى والتي اهتمت بالعناية بالمرضى والفقراء، أو كفرقة فرسان الهيكل والتي تسمى الداوية[٣] التي اهتمت بالعناية بالحجاج النصارى ومداواة المرضى والمحافظة على ما احتلوه من بلاد المسلمين وعدم التنازل لهم بشيء، أو الفرسان اليتوتونيون الألمان[٤].

كل تلك الفرق والطوائف نشأت في المسيحية، ولعل تسميتها بالأحزاب أو الجماعات هو الأنسب من تسميتها بالفرق، حيث لم تكن لها عقائد دينية جديدة، وإنما كانت تابعة للكنيسة البابوية، مقتفية لها في العقائد والشرائع ، فلم تنتقد شيئا من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية أو رجالها، وقد كان لها أتباع بحسب انتشار كل فرقة من تلك الفرق.

ولذا فالمقصود هنا، هو بيان تلك الافكار التي نشأت في كنف الكنيسة الكاثوليكية، إلا أنها رفعت سلاح الإصلاح في وجهها، وحملت لواء النقد والتوبيخ لرجالاتها ، وكانت بمثابة مسابقة الزمن، بعد أن شعر رواد الاصلاح الكاثوليكيين بفوات الوقت الذي كان من المفترض فيه أن يسعوا لإصلاحها.

---

١ انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، اندرو ملر ص ٣٥٥-٣٥٦ وموسوعة تاريخ العالم، وليام لانجر٢/٦١٠ الفرق والمذاهب المسيحية من ظهور الاسلام حتى اليوم، اسعد رستم،١١٣-١١٥ والموسوعة العربية الميسرة،محمد شفيق غربال، ١/٨٢١

٢انظر: لفرق والمذاهب المسيحية من ظهور الاسلام حتى اليوم، اسعد رستم ١١٦ و اوربا والمسيحية،يان دوبرا تشينكي ٢/١٠٢

٣ انظر: تاريخ الجماعات السرية، اركون دارون ص ٣٣ ترجمة د/ عبدالوهاب عبدالرحمن والرحب المقدسة (الحملات الصليبية واثرها على العالم اليوم) كارين ار مسترونغ، ترجمة سامي الكعكي، ص ٢٣٨

٤ انظر: الفرق والمذاهب المسيحية من ظهور الاسلام حتى اليوم، اسعد رستم ١١٨ -١٢٠ و اوربا والمسيحية،يان دوبرا تشينكي ٢/١٠٢ وموسوعة تاريخ العالم، وليام لانجر،٢/٥٨٨

وفي الحقيقة، فإن المحاولات الإصلاحية الكاثوليكية قد بدأت قبل أمد من ظهور الإصلاح البروتستانتي، رغبة من رواد الإصلاح الكاثوليكي في إيقاظ ضمير الكنيسة الذي غط في سبات عميق، وأعد العدة للهجوم الساحق على كل ما يمت للإصلاح بصلة، فقد نشأت كثير من تلك الحركات حتى عدها بعض المؤرخين مائة وخمسن حركة في القرن الثالث عشر[١].

لكن كل تلك المحاولات، كانت تجابه بكل شراسة من قبل أصحاب السلطة الدينية، وسرعان ما توئد في مهدها، ويقضى عليها في اول عهدها، ولهذا لا تعدو أن تكون محاولات فردية من بعض المفكرين والمثقفين، كما حاول بيرانجيه دوتور في القرن الحادي عشر، وكان ذا ذهنا ثاقبا ومناقشا بارعا حينما أنكر العشاء الرباني أو سر الأفخارستيا مقررا أن المسيح لا ينقسم وإذا كان كله في قربان لا يمكنه أن يكون في مليون مذبح اخر وفي السماء ايضا !، لكنه لم يلبث أن سجن بأمر الملك هنري الأول ولم يخضع لسلطة الكنيسة إلا في آخر حياته، وحذا حذوه ابيلار الذي كان يقول: "لا يمكن الإيمان إلا بما يكون المرأ فهمه من قبل "[٢] وكذلك الكاردينال بيار داميان أسقف اوستيا، أو ارنو دوبريسيا، عندما احتج على جشع رحل الكهنوت وفساد رجال الدين وعلى ثروات الكنيسة ولكن كان مصيره الشنق ثم الحرق وألقي رماده ي نهر التيبر عام ١١٥٥م [٣] وكذلك القديس فرنسيس الاسيزي، الذي تصدق بأمواله واصبح من رعاة الكنيسة إلأا أنه جوبه بالحرمان[٤]

غير أن هؤلاء الذين يمكن أن تصح تسميتهم بأصحاب الجهود الفردية كانوا قلة لم تذكر آرائهم بعد رحيلهم، ولم تصل أفكارهم ورسائلهم إلى القاعدة العريضة لشعب الكنيسة، ولعل ذلك يعزى ذلك إلى إحكام الكنيسة قبضتها القوية على الناس، باحياء شعورهم

١ انظر: قصة الحضارة ١٩٤/٢٧

٢ الهرطقة في المسحية ص ١٤٠

٣ وهو نهر في إيطاليا يمر في روما ويصب في البحر التيراني. انظر: المنجد في الأعلام ص ١٨٨

٤ انظر: أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ١٦

بالخوف من سلطة الكنيسة في هذه الحياة والحياة الأخرى[1] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لعل مرد ذلك، إلى اطمئنان الكنيسة من عدم وجود الند لها في العالم المسيحي، أو من يقوم مقامها، ولذا لم تعر للمصلحين أدنى اهتمام قبل ظهور الإصلاح البروتستانتي، غير أنه بعد ظهور البروتستانت أصبح للمصلحين المكانة العليا والإهتمام الأكبر في الكنيسة البابا وية، لشعورهم بالخطر المدلهم والند القوي والخصم العنيد.

وعلى كل حال، فقد مر إصلاح الكنيسة البابوية الكاثوليكية بمرحلتين مهمتين في تاريخ الإصلاح الكاثوليكي، ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

المرحلة الأولى: الإصلاح الكاثوليكي قبل ظهور البروتستانت:

بدأت حركات الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية قبل أمد من ظهور البروتستانت، فقد ظهر عدد من الرجال الذين نادوا بالإصلاح[2] ويمكن ذكر أهم تلك الحركات والدعوات التي نادت بالاصلاح قبل ظهور الإصلاح البروتستانتي والتي كان لها نوع من الحضور القزي في المسرح المسيحي، والتي تشكلت كفرقة لها أتباع معتمدين على مباديء عقدية، وذلك فيما يلي:

أولا: الفرقة الكلونية:

تأسست هذه الفرقة في فرنسا عام ٩١٠م على يد رجل يدعى " وليم دوق اكوتين "، وقد بدأت بدير محدود في كلوني، حيث بدأت باصلاح الأديرة فقط، فكانت لا تقبل أي هبات من أي أمير أو حاكم مقابل خدماتها، وحاولوا الفصل بين الكنيسة والدولة وانتساب الأديرة إلى البابوية مباشرة، وسرعان ما انتشرت هذه الفكرة في غرب أوربا انتشارا واسعا، إلا أنها سرعان ما تطورت تطورا ملحوظا، حتى إنها كانت في القرن الحادي عشر تستهدف إصلاح الكنيسة إصلاحا شاملا[3].

---

١ انظر: أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ١٧

٢ انظر: أصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٢٠

٣ انظر: Cam.med.hist,vol.١٥.p.٦٦١ &Tout:the empireahd the papacy,p.٩٩

نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٣٣٨

وقد هدفت هذه الفرقة وركزت كل اهتمامها لتوجيه باباوات الكنيسة نحو هدفهم الأسمى، وهو التعليم الديني والاهتمام بالنواحي الروحية،بعد أن رأوا منافسة البابوات لكبار الأباطرة على السلطان الدنيوي [1]

ومن أبرز محاولات الإصلاح التي نادت به ما يلي:

١-الفصل التام بين السلطة الدينية الباوية والسلطة الدنيوية، وعدم ارتباط الكنيسة بالدولة، وأن لا يكون للحكام حق الإشراف على الأديرة والكنائس، وربطت الامراض الخطيرة التي تعرضت لها الكنسيسة بسبب ارتباطها بالدولة[2]

٢-كبح جماح الشهوة الحسية بالصوم والسهاد والجلد بالسياط وبكل المتاعب التي تنهك الجسد وتهد من قواه [3]

٣-حرمت السيمونية، وهي شراء الوظائف بالمال، وحرمت زواج القسس، وحاولت القضاء على ظاهرة زواج القسس، ونجحت في ذلك، عندما أصدرت البابوية في القرن الحادي عشر قرارا حرمت فيه الزواج على القسس والشمامسة ومساعدي الشمامسة، وحرمت التقليد العلماني، والمقصود بالتقليد العلماني، هو إن يقوم الحكام العلمانيون من أباطرة وملوك وأمراء بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية[4].

---

١ انظر: thompson:op.cit.vol.l.p.٤٢٧نقلا عن اوربا العصور الحديثة ص ٣٣٩العلاقة السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، د/ عادل زيتون ص ١٠٣ وتاريخ العصور الوسطى، د/ السيد الباز العريني، ص ٤٤٩

٢ انظر: أوربا العصور الوسطى الجزء الأول، التاريخ السياسي، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ٣٤٠

٣ انظر: تاريخ العصر الوسيط في أوربا، د / نور الدين حاطوم، ص ٥٠٥و٥٠٦

٤ انظر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، د/ السيد الباز العريني، ص ٤٥١ و٤٥٢ و العلاقات السياسية والكنيسة، د / عادل زيتون، ص ١٠٣ و Fliche:I,europ,occidentale,pp ٣٤٣٠٣٤٤. نقلا عن اوربا العصور الحديثة ص ٣٣٩

ثم تقوت هذه الفرقة في القرن العاشر عام ٩١٤م على يد أمير شاب يدعى " جيرارد" في منطقة اللودين، في فرنسا، وأصبحت تعرف باسم " كنيسة الرب" ، وكانت أهم ما دعت إليه آنذاك، هو الإبتعاد بالسلطة الدينية البابوية عن السلطة الدنيوية والحكام، بل وفصلها عنها تماما، وكانت تتبع أسقفيات محلية وليس تابعة للبابا، مع العودة إلى تعاليم السلف الصالح، والدعوة إلى التقشف وترك البذخ من رجال الدين، ولكنها جوبهت مجابهات عنيفة من قبل رجالات الكنيسة [١]

ثانيا: بيار دو بروي واتباعه:

وقد ظهر هذا الرجل في دوفينيه وبروفانس، في أواخر القرن الحادي عشر، وقد دعا إلى تدمير أماكن العبادة، محتجا بأن الله في كل مكان، ودعا إلى تحطيم الصلبان، لأنها أدوات تعذيب المسيح، وقد أحرق هو وأتباعه مجموعة من الصلبان، شوو عليها لحما، وأكله هو واتباعه، عام ١١٤٠م وقد لقيت دعوته رواجا كبيرا لما يتمتع به من خطابة وتقشف، إلى أن لوحقت ووأبيدت من قبل الكنيسة [٢]

ثالثا: الفوديون:

وهم أتباع بيار فالدو سنة ١١٦٠م وقد كان له ثروة وزعها على فقراء مدينة ليون، وكان يقرأ كتب الأنبياء والرسل التي حصل على ترجمتها إلى العامية، وكان يعلم أن الكنيسة الرومانية عاهرة بابل، وأن الباوبات والأساقفة قتلة، وأن الرهبان فريسيون، وأنه يجب رفض دفع العشور، وكان يقول بسلطة التوراة المطلقة والهامها والخلاص المجاني على يد المسيح والايمان الفاعل بالمحبة.

---

١ انظر: تاريخ العصر الوسيط في أوربا.، نور الدين حاطوم، ص ٥٠٨ و٥١٠ و٦٥٢
Fliche:I,europe occikdentale.pp.١٢٨-١٣١

٢ انظر: الهرطقة في المسيحية ص ١٤٢

وقد لقيت أفكاره رواجا عظيما وخصوصا بين أفراد الطبقة العامة، ولا تزال طائفة الكنيسة الفودية موجودن إلى اليوم في مناطق إيطاليا ، حيث يحتفظ السكان حتى الآن ببعض آثار أفكاره، ولها أتباع على السفح الفرنسي بجبال الالب الكوتية[1]

رابعا: فرقة الكارثاريين أو الكاتاريين:

ومعناها الأطهار وكانوا يعرفون ب" الألبيجينين " وهي اسم المنطقة الفرنسية التي كانوا يعيشون فيها، وكذلك ظهروا في كولون بألمانيا وشمال إيطاليا وأسبانيا[2] وقد ظهرت هذه الفرقة في القرن الثاني عشر، وكانت دعوتهم إلى العودة إلى العقائد والأساليب النصرانية الأولى، وكانت من ناحية أخرى تحمل آراء غامضة شرقية مثل المانوية[3].

وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء، ويقسمون طبقاتهم بترقيات في المناصب حتى يهبوا أنفسهم لله والإنجيل.. ولا يقربوا امرأة قط، ولايقتلوا حيواناً ، ولا يأكلوا اللحم أو البيض، أو منتجات الألبان، وألا يطعموا إلاالسمك والخضروات، وكان أتباعهم يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد على الإيمان بهذا[4].ومن ثم أصبح التمتع الجسدي من ضمن المحرمات عندهم، وأصبح الإكثار من التمتع بالجنس مع الزوجة إثما عظيما وقاموا بتحذير أي شاب أمسك وهو يتزلج أو يسبح، وحرم التمشي في يوم الأحد وزيارة الميناء، وجرى التحذير من لعب الأطفال وجولات النزهة للشباب والفتيات، على أساس انشغالهم (في أشياء تقود إلى إهانة الرب كثيرا وإلى الإستخفاف بالدين)[5]

ويقال عنهم، أنهم ينكرون الملكية الخاصة، ويطالبون أن تقسم الأملاك بين الناس بالتساوي، وكان موقفها من الكنيسة موقفاً متشدداً ، حيث وجهت إليها نقداً موجعاً ،

---

١ انظر: الهرطقة في المسيحية ص ١٦٤-١٧٠

٢ انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ٧٨/١٦ وتاريخ الكنيسة، جون لوريمر، ٤٢/٤ والهرطقة في المسيحية ص ١١٥-١٢٣

٣ وقد تقدم الحديث عن تعريف المانوية ص من هذا البحث.

٤ انظر: قصة الحضارة ١٦/ ٨٠ والهرطقة في المسيحية ص ١١٥-١٢٣

٥ التاريخ المسيحي المظلم ص ١١٩

وأنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح، وقالت: إن بطرس تلميذ المسيح لم يأت قط إلى روما ولم يؤسس البابوية، وأن الباباوات خلفاء الأباطرة، وأن المسيح ليس ابناً لله تعالى، وقد قاومت الكنيسة هذه الجماعة مقاومة شديدة، ورأت في وجودها خطراً على كيانها، ولذلك لما جلس البابا إنوسنت الثالث على كرسي البابوية عام ١١٩٨م رأى في وجود هذه الجماعة وانتشارها خطراً محدقاً بالكنيسة، فأصدر الأمر بقمعهم وبشن حملات ضارية عليهم[١].

خامسا: حركةالولدانيين:

مؤسس هذه الفرقة هو بطرس والدو، المتوفى سنة ١٢١٧ م، وكان تاجرا من ليون في فرنسا.ولم يتميز والدو ورفاقه عن الآخرين بعدم مضايقة الكنيسة له، وقد كان ينعى على رجال الدين ثرائهم وترفهم، مكرزا بأن يقرأ كل مسيحي الإنجيل حسب فهمه .

وهي من الحركات التي جاهرت بنقد الكنيسة، وعارضت آرائها، وأظهرت السخط على رجال الدين، ونددت بفسادهم ومساوئهم في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وقد كان هذا الرجل يتحدث مرة مع بعض أصدقائه فإذا بأحدهم يسقط ميتا، فتأثر تأثرا بالغا، فاتجه نحو الرهبنة وباع كل أملاكه، وتصدق بها على الفقراء.

وقد اصطبغت هذه الحركة تدريجيا بصبغة معادية لرجال الدين، ونبذتهم جميعاً ، وأنكرت العشاء الرباني، وعارضت صكوك الغفران، وبعض العقائد النصرانية[٢]

---

١ انظر: أثر الكنيسة على الفكر الأوربي ص ٢٢ ومعالم تاريخ الانسانية المجلد الثالث ص ٩٠٤ وتاريخ الكنيسة، جون لوريمر، ٤٢/٤ واوربا العصور الحديثة ص ٥٠٨ والهرطقة في المسيحية ص ١١٥-١٢٣

٢ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ١٩ .

وقد نال بطرس والدو ما نال من سبقه منالإضطهاد والتعذيب، وحكم عليه بالموت في عام ١١٨٤م، وقاومت الكنيسة هذه الحركة وأحرقت الآلاف من أتباع والدو[1]غير أنها هذه الفرقة ظلت قوية في المناطق الواقعة شرقي الرون، حيث كان مركزهم الرئيسي حول مدينة ليون في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي.

سادسا: حنا ويكلف أو جون ويكليف John wyeliffe:

وقد ظهر في القرن الرابع عشر، وعرف هذا الرجل بلقب "نجمة الصباح "، وكان من علماء اللاهوت، وأستاذا في جامعة أكسفورد، وكاهنا لمدينة لقروين، وقد دعا إلى رفض البابوية، وأنكر الرتب الكهنوتية، ومذهب الإستحالة، وترجم الكتب المقدسة، ليفهمها عامة الشعب، وعكف على نقد الكنيسة، وعكف على وضع حلول لوضع الكنيسة، ووصل إلى أن الرب وحده له ملك السموات والأرض، وأن جميع الصالحين لهم حق ملكية الأرض، وأن هذه الملكية حق مشاع عام بينهم، لأن الملكية الفردية جاءت نتيجة لخطيئة آدم، وبناء على ذلك، لا يصح أن تتردى الكنيسة في هذه الخطيئة .كما يرى ..

وكان من آرائه أن البعض قدر له الخلاص والرحمة، والبعض قدر له الهلاك واللعنة الابدية، "وقد يكون البابا من الفريق الاخير " من وجهة نظره، ورأى أن أسلوب الحياة يجب أن تستقى من الأناجيل، لا من تعاليم رجال الكنيسة، وأن الصلة بين الإنسان وخالقه تكون مباشرة بلا واسطة، وأن الإنجيل يجب أن يكون في متناول يد كل مسيحي، فما كانت عاقبته إلا أن طرد هو أتباعه من " اكسفورد " واعتزل بقية حياته في قريته حتى مات عام ١٣٨٣ م أو عام ١٣٨٤م[2]

سابعا: حناهس، او جان هوس، أو جون هس:

---

١ قصة الحضارة ١٦/ ٧٧ وتاريخ الكنيسة، جون لوريمر ٤٣/٤ ومعالم تاريخ الانسانية – المجلد الثالث – ص ٩٠٤ Cam.med.hist,vol.٦.p.٢٠ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٥٠٨

٢ انظر: تاريخ اوربا في العصور الوسطى – القسم الثاني – فيشر، ص ٣٦٢ وقصة الحضارة ٦٣/١/٦ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٥٧ والهرطقة في المسيحية ص ١٧٠-١٧٦ و Omani the hist of England.p.٦٩نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٥١٠

وقد ظهر في أواخر القرن الرابع عشر، وكان متاثرا بمبادىء ويكليف وكتبه، وابتدأ يكرز بالإنجيل، ويندد بنوع الحياة المترفة التي كان الكهنة يعيشونها، وهاجم صكوك الغفران، عندما أرادالبابا حنا الثالث والعشرين شن حرب على ملك " نابلي "، وراح يبيع صكوك الغفران لتسهمفي مساعدته على تكوين حملة عسكرية.

وقف حناهس يهاجم هذه البدعة، وادعى أن أوامرالبابا غير ملزمة للمسيحيين الا فيما يتفق مع تعاليم المسيح، وبالتالي تعتبر ملغاة، لأنها تتعارض مع تعاليم المسيح، وتأثر به كثير من الناس بعد اشتهار أفكاره،وادين وحكم بهرطقته في مجمع كونستانس عام ١٤١٤ م، وحكم عليه مجمع كونستانس بالإعدام حرقا، واحرقت قبل ذلك كتبه وملابسه قبل أن يتم حرقه وهو يترنم[١]

ثامنا: آرزم فوجه:

ظهر هذا الرجل في عام وقد كانت دعوته - كما يقولون – إلى العقلاء والمفكرين، فدعاهم إلى قراءة الكتب المقدسة، وفهمها، والتوصل إلى العقيدة من مصادرها الأولى، وكان آرزم صديقاً للبابا " ليو العاشر " وكان محل إعجاب البابا فالتزم آرزم التؤدة وحافظ في دعوته على قداسة البابوية... حتى ظهر لوثر فرفض البابا ليو العاشر جميع أفكار آرزم.

تاسعا: المتسوطين أو السياطين " Flagellants":

وقد ظهرت هذه الفرقة في القرن الرابع عشر نتيجة الذعر الذي أصاب الناس عند انتشار الوباء الأسود، فاعتقدوا أنه غضب من الله، على عباده الآثمين، ولا سبيل إلى النجاة إلا بتعذيب النفس وضربها بالسياط، معتقدين أن من يواضب على هذه العملية لمدة ثلاثة وثلاثين يوما ونصف اليوم، فإنه يضمن تطهير النفس من جميع الآثام، وقد كانوا يجلدون أنفسهم بالسياط، ويعزون إلى الإماتة الجسدية فضائل كبرى، ويعطون بعضهم بعضا الحلة، أي غفران الخطايا، ودعوا الى مقاطعة رجال الاكليروس، مسلحين بسوط مجهز بثلاة إلى

---

١ انظر: تاريخ اوربا في العصور الوسطى – القسم الثاني – فيشر، ص ٣٧٠ وقصة الحضارة ٤/٢/٦ وأضواء على الاصلاح الانجيلي ص ١٩-٢٠ واوربا في مطلع العصور الحديثة ص ٣٥٨ وتاريخ الكنيسة ٥٥/٤ والهرطقة في المسيحية ص ١٧٦-١٨٦ واوربا العصور الوسطى ص ٥١٣

أربعة سيور جلدية، ربطت أطرافها بقطع الحديد، يضربون بها كتفيهم وجذعهم، حتى يسيل دمهم، مكررين بعض الأناشيد الدينية، كقولهم: "فالنضرب جثتنا بقوة، لنمتدح الله ونضرب صدورنا.."حتى صدر قرار بابوي بالقضاء على هذه الفرقة وبقيت منهم بقية حتى القرن الخامس عشر[1]

عاشرا: سافونا رولا:

وقد ظهر هذا الرجل في مدينة فدويتا بايطاليا في أواخر القرن الرابع عشر، وقد أراد أن يطهرها من الفساد، وكان يواجه الحكام والعظماء بقوله "إذا أردتم حكومة جيدة فأطيعوا الله " وقد واجه البابا في عصره وأنكر عليه فساد الكنيسة ورجالها، فأحرق هو واتباعه عام ١٤٩٨م، أي عندما كان لوثر عمره ١٥ سنة [2]

والواقع، أن هذه الدعوات وغيرها كانت دعوات جزئية في وقتها لمناهضتها سلطان الكنيسة، ومن الملاحظ أيضا أن معظم هذه الدعوات كانت تتفق في وجوب اصلاح الكنيسة ونقد كهنتها، مع اختراع بعض الطقوس والعقائد الجديدة، دون نقد أهم أسس عقائد المسيحية وشرائعها المحرفة، ولعل ذلك يعزى للسعي للفكاك من جاثوم الكنيسة على رقابهم والتحرر من الاستعباد لسلاطينها ثم الإلتفات بعد ذلك للعقائد والشرائع –والله اعلم –.

المرحلة الثانية: الإصلاح الكاثوليكي بعد ظهور البروتستانت:

هذا الإصلاح الكاثوليكي في هذه المرحلة ظهر بعد أن ظهر رواد الكنيسة الإصلاحية البروتستانتية، والذين نادوا بإصلاح الكنيسة، بل ومقتوا الكنيسة الكاثوليكية، وأنشئوا لهم

١انظر: Painter: a hist,of,the middl ages, p. ٤١٩ و Workman: the evolation of monasticism,p.٢١٦ نقلا عن اوربا العصور الوسطى ص ٥٠٨-٥٠٩ الهرطقة في المسيحية ص ١٤٤-١٤٥

٢ انظر: أضواء على الإصلاح الإنجيلي ص ٢١

كنيسة خاصة بهم سميت بالبروتستانتية[١]، ولذلك يسمي علماء ومؤرخي الأديان الدعوات الإصلاحية الكاثوليكية في هذه المرحلة "بالإصلاح المضاد"[٢] .

ويشعر هذا المسمى كما هي حقيقته، حيث إن هذا الإصلاح لم يظهر إلا مضادة للإصلاح البروتستانتي، وليس من أجل إصلاح الكنيسة بالفعل، إلا أن بعض رجال الدين الكاثوليك أدرك ضرورة الإصلاح الكنسي.

لقد أصبحت الرغبة في إصلاح الكنيسة البابوية لم يقتصر على أتباع الكنيسة فحسب، بل تفشى حتى بين صفوف الباباوات ورجال الاكليروس، وكهنة الكنيسة، بل تمّت المبادرات الأولى على يد بعض الرهبان، والعلمانيين الأتقياء، وأحياناً على يدّ بعض الأساقفة[٣]

وكانت السمة البارزة على هذا الإصلاح، هو النقد للفساد الحاصل من رجال الدين، وتوجيه رجال الكهنوت، دون نقد العقائد المنحرفة، أو حتى الشرائع الباطلة، كما فعل الإصلاح البروتستانتي.

لم يفق باباوات الكنيسة الكاثوليكية إلا على مطارق الإصلاح البروتستانتي الذي أقض مضاجعهم، فأظهر باباوات الكنيسة الندم على خطايا الكنيسة –بعد عجزهم عن إبادته– وقت لا ينفع الندم كما فعل البابا أدريان الخامس حينما يقول عن الكنيسة:(نحن نعترف بصراحه أن الله سمح باضطهاد الكنيسة بسبب آثام الناس، خاصة الأساقفة ورجال الدين، ونحن نعرف جيدا أنه كان لسنوات طويلة كانت هناك أشياء تدعوا إلى الاشمئزاز، قد

---

١ وقد تقدم الحديث عن الإصلاح البروتستانتي في المبحث السابق.

٢ أصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٢٠ موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٨٦

٣ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

تجمعت حول الكرسي الأسقفي المقدس، وأن أشياء مقدسة قد أسيء استعمالها، وأن الأوامر الإلهية قد انتهكت وكل شيء قد تغير نحو الأسوأ)[1]

فأصاخت الكنيسة الكاثوليكة السمع عقب ذلك لدعوات الإصلاح الكاثوليكي، بل تبنت بعض تلك الدعوات، فقد كان الفضل لهذا الإصلاح يعود لقيام البروتستانت بالإصلاحات التي أثرت على الكنيسة الكاثوليكية إيجابا، رغبة منها في مجاراة البروتسنت من ناحية، وخوفا من انبهار أتباعها بالبروتستانت من ناحية أخرى، ولهذا كان الإصلاح الديني البروتسانتي ضربة قاسية، بالنسبة للكنيسة الرومانية، فعرفت كيف تستفيد منه في توجيه سلوك رجالها فقط.

فقد جرى تحسين ممارسات كبار رجال الاكليروس تحسينا عظيما، فلم يعد يرى باباوات على غرار، يدخلون إلى الفاتيكان عادات المرتزقة، أو يحتفلون فيه بأبهة كبرة، بزواج أولادهم، ولم يعد يرى كرادلة يصلون إلى المجامع بحاشية ضخمة ومعهم عشيقاتهم [2]

ويمكن إيعاز قبول الاصلاحات الكاثوليكية كذلك، إلى الضغط العنيف الذي قاسته الكنيسة البابوية من قبل أعدئها وأتباعها، الذين أرادوا اللحاق بركب الاصلاح البروتستانتي، وإن كانت في حقيقتها لسيست إصلاحات كبرى تشبع نهم المتعطشين إلى الاصلاح البابوي ، إلا انها في نفس الوقت، تعد قفزة كبيرة في تاريخ الكنيسة البابوية التي لم يخطر ببالها يوما أن ترضخ لضغوط الإصلاح، أوأن تغير شيئا من أحكامها وقراراتها وخطاها، وهي تعد في حقيقتها القشة الاخيرة التي رأى باباوات الكنيسة التعلق بها قبل فوات الاوان.

ومن أبرز الدعوات الاصلاحية الكاثوليكية في هذه المرحلة ما يلي:

---

١ أوربا والمسيحية ٣/٣٢٠ وانظر: دليل الى قراءة تاريخ الكنيسة ص ٢٧٣ وومختصر تاريخ الكنيسة،اندرو ميلر، ص ٥٩٦ موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٨٧

٢ انظر: الهرطقة في المسيحية ص ٢٤٩

أولا: إنشاء جمعية يسوع:

وتسمى هذه الجمعية جمعية (الجيزويت) وهي تعد أولى الإصلاحات الكاثوليكية الفعلية المضادة للبروتستانت داخل الكنيسة[1] فقد ظهرت هذه الحركة في وقت كانت الحاجة فيه ماسة للكنيسة الكاثوليكية لما يعزز مكانتها الإصلاحية أمام الكنيسة البروتستانتية، فظهرت في الوقت الذي كون فيه البابا بولس الثالث في عام ١٥٣٤م لجنة من بعض رجال الكنيسة لمعالجة أخطاء الكنيسة الكاثوليكية، والتي طالبت بدورها بإصلاحات جذرية للكنيسة[2].

وقد تأسست على يد دي لويولا [3] مع أنه يذكر عن دي لويولا أنه لم ينشأ على العلم سوى معرفة القراءة والكتابة، وانشغل باللعب والفروسية والقمار ومغازلة النساء، ونشأ مدربا على الحروب وخاض عدة حروب حيث جرح في إحداها، ومن أجل ملء الفراغ قرأ بعض الكتب التي تحدثت عن المسيح والقديسين القدامى، فتاثر بها تاثرا عظيما، ولذلك جاء في كتاب رياضيات القديس اغناطيوس لدي ليولا حيث جاء في مقدمته:(إعلم أيها المؤمن أن مؤلف هذا الكتاب الشريف هو القديس اغناطيوس مؤسس الرهبنة اليسوعية الذي بقراءته أخبار سيرة القديسيين بطريق الصدفة إستنار بالنور السماوي الذي يرى بطلان خيرات العالم وتفاقم جهل الذين يحبونها)[4]

وبعد قراءته لأخبار القديسين القدامى وتأثره بهم، تجول في عدة مدن لترويج دعوته كبرشلونة وباريس وفلسطين وسلمنكا والبندقية قبل أن يتوجه إلى روما [5]

---

١ انظر: أصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٢١

٢ انظر: أصول التاريخ الأوربي الحديث ص ١٢١ وتاريخ اوربا الحديث،جاد طه، ص ١٣٦

٣ انظر: موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٤٩

٤ رياضيات القديس اغناطيوس دي ليولا مؤسس الرهبنة اليسوعية التي نقلها من اللاتينية إلى العربية الاب بطرس فرماج اليسوعي صحيفة ٢

٥ انظر: موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٩٥

وعند ذهابه إلى روما ظهر مع مجموعة من الحجاج الإسبان عام ١٥٣٧م وكان عددهم سبعة اشخاص.[١] بينما يذكر بعضهم أن لويولا حج إلى روما هو واثنين من تلاميذه فقط، وطلبوا من الحبر الأعظم أي البابا أن يصادق على حركتهم، فصادق عليها سنة ١٥٤٠م التي عرفت باسم " جمعية يسوع " وقد اهتم بعد ذلك لويولا ومن تبعه بإقامة المدارس والكليات، كالكلية الرومانية التي أصبحت فيما بعد الجامعة الغريغورية، ومدرسة للطلبة الالمان، ومدرسة غانديا في اسبانيا، التي أصبحت جامعة، ومدرسة مسينا في صقلية، والكثير من المدارس غيرها، خارج روما، وأنشأ دارا لتعليم اليهود المهتدين إلى المسيحية، ودار لإيواء الأيتام، واهتم بالتبشير بين الناس بالمسحية [٢] بل كان الفضل في تعليم المسيحية ونشرها، يرجع إلى فرقة الجزويت، ومن على شاكلتهم كالبندكتون والسالسيان الذين أنشأوا الاف المدارس لتعليم الكاثوليكية في كل قارات العالم[٣].

وكان من أهم دعاواهم هو التبعية للكنيسة، ووضع القواعد الإصلاحية الأساسية في سلوك رجال الكنيسة والفقر والدعوة إلى التعاليم الكاثوليكية، والعفة، ودعوة البروتستانت

---

١ الفرق والمذاهب المسيحية، سعد رستم. ص ٢٠٠ و ودليل الى قراءة تاريخ الكنيسة ص٢٧٨ وعصر النهضة والصلاح ص ١٢٣ وموقع على الشبكة العنكبوتية "يسوعيون، موقعنا الخاص بالرياضيات الروحية الاغناطية " - رهبانيتنا — مؤسس الرهبنة.

٢ انظر: تاريخ الكنيسة المفصل، نقله إلى العربية الأب صمحي حموي اليسوعي، طبعةأولى٢٠٠٣، بيروت. ومجلة الزنبقة، العدد ٥٢/١، ص ٣٠-٣٢,٢٠٠٧م، الكاتبة المهندسة: آن سامي مطلوب

٣ انظر: موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، -الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٩٥

والمسلمين والوثنيين إلى المسيحية[1] وشعارها البراق الذي ترفعه، هو الزهد والتقشف والورع، ويتضح هذا في كتاب لويولا "تدريبات روحية " تبين الصفة السائدة على أفراد هذه الحركة[2] غير أن الملاحظ أن هذه الفرقة أو الحركة لم ترقى إلى تطلعات المصلحين في الإصلاح الكاثوليكي فأهملت جوانب العقيدة والشريعة الكنسية التي اخترعها باباوات الكنسيسة، وانصب اهتمامها على نشر المسيحية، والدعوة إلى التنصير وإلى مجابهة الكنيسة البروتستانتية[3].

ثانيا: عقد مجمع ترنت:

من الإصلاحات الكنسية البابوية المضادة، هو عقد مجمع ترنت، الذي يعد هو المجمع الوحيد الذي أفرز قرارات ونتائج، يمكن أن تعد على مدى تاريخ الكنيسة البابوية تحوي نوعا من الاصلاح النظري أو الشكلي للكنيسة، وذلك لمواكبة الاصلاح الفعلي البروتستانتي، ويدلل على ذلك، فشل نتائج المجامع التي عقدت قبله من قبل الاصلاحيين الكاثوليك (كالمجمع الذي عقد في مدينة بيزا عام ١٤٠٩م ولكنه فشل ومجمع كونستانس الذي استمر ثلاث سنوات دون جدوى لعدم وجود الجدية والحزم عند من حضره ومجمع بازل الذي استمر منعقدا من عام ١٤٣١-١٣٣٩م دون جدوى حتى تبين للكثيرين أنه لا يمكن أن يحدث إصلاح من خلال النظام السائد في الكنيسة في ذلك الوقت وكان لابد من

١ انظر: الفرق والمذاهب المسيحية، سعد رستم. ص ٢٠٠ و ودليل الى قراءة تاريخ الكنيسة ص٢٧٨ وعصر النهضة والصلاح ص ١٢٣ موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، -الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٩٩

٢ انظر: موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، -الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٩٥

٣ انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، اندرو ملر، ص ٥٩٦ واوربا والمسيحية، يان دوبرا تشينكي ٣٢٠/٣ والفرق والمذاهب المسيحية من ظهور الاسلام حتى الليوم، أسعد رستم، ص ١٩٨ موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، -الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٣٠٠

ثورة تكسر النظام القائم وتهزه... لكن سلطان الكنيسة الرهيب كان يجهظ حركاتهم الثورية)[1]

أما مجمع ترنت فلم يجابه تلك المجابهة، بل كان يحرك المجتمعين نوعا من الشعور الداخلي الوقاد لعرض الكنيسة البابوية بصورة ترضي طموح المنتمين إليها، والمنشقين عنها كذلك، وقد تمّت المبادرات الأولى، على يد بعض الرهبان والعلمانيين، وأحياناً على يدّ بعض الأساقفة، وفي آخر الأمر توصّل الكرسي الرسولي بمشقّة كبيرة إلى عقد مجمع عام في مدينة ترانتو الإيطالية (Trente) سنة ١٥٤٥م الى سنة ١٥٦٣م حيث تخللتها توقفات طويلة[2] ويسمّى هذا المجمع بالمجمع التريدنتيني. والذي دعا لعقد هذا المجمع هو البابا بولس الثالث (١٥٣٤-١٥٤٩م)[3].

وقد ابتدأ هذا المجمع خصوصا في السنتين الأوليين من عقده بقرارات يشتم منها رائحة ما تبقى من صلف باباوات الكنيسة وزعمائها، حيث دعا إلى تدعيم الباوية وتسفية البروتستانتية، وقد شرحوا فيه العقائد الكاثوليكية بايضاح وجلاء، وخصوصا ما كان محل شك وجدل لدى البروتستانت، وأكد المجمع على الأساقفة ورجال الدين أن يتولوا تعليم الشعب، وأن ينشئوا المدارس الدينية لتعليم القساوسة [4].

---

١ أضواء على الاصلاح الانجيلي ص ١٨ وأصول التاريخ الأوربي الحديث، ص ١٢٤

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١١١وMurray Linda (١٩٩٣)، the *Mannerism&highrenaissance*، Thames and Hudson, Singapore, p. ٢٠٨ نقلا عن ويكيديا الموسوعة الحره (الاصلاح المضاد) موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، -الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٨٧

٣ أصول التاريخ الأوربي الحديث، ص ١٢٤

٤ انظر: محاضرات في تاريخ الكنيسة الغربية، د/ يواقيم رزق مرقس، ص ٦٣ موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، -الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٨٩

غير أن أعضاء هذا المجمع رأوا بعد ذلك ضيق الخناق عليهم، وأن العالم النصراني لم يعد يأبه كما كان في السابق بقراراتهم الرنانة، وحرماناتهم الطنانة، فصدرت عند انتهاء هذا المجمع عدة قرارات دعمت مباديء الإصلاح الكاثوليكي.

ويمكن أن توجز أهم قرارات هذا المجمع الاصلاحي الكاثوليكي فيما يلي:

١ – ألغى الإمتيازات الملكية التي كان يممتاز بها السلك الكهنوتي الكنسي، وندد بحياة البذخ والترف، ولذا يقول أسقف إيطاليا في خطابه الأخير أمام المجمع في ٢ ديسمبر ١٥٦٣م: (من الآن فصادعا لن يؤدي الطموح لذبح الفضيلة في السلك الكهنوتي المقدس، فستكون كلمة الله هي محور الإهتمام، وبعناية فائقة، وسيبقى الأساقفة بين رعاياهم، ومن الآن فصاعدا، لا مكان لهذه الامتيازات التي كانت عباءة تتدثر بها الرذيلة والخطايا، وتم التخلص من رجال الدين التافهين ولن تباع الأشياء المقدسة بالمال...)[١].

ويبدوا أن كل جلد الذت الذي تفوه به هذا الأسقف وغيره من الأساقفة في هذا المجمع هو تسكين للنفوس الثائرة على الكنيسة ومسابقة للزمن الذي كاد أن ينفد أو نفد بالفعل أمام صبر أتباع الكنيسة الكاثوليكية.

٢ – أصدر قرارا بالسماح لقراءة الكتاب المقدس بلغة الشعب، ولكن تحت قيود مشددة فجاء من ضمن قراراته (لما كان قد ظهر من الأخبار أنه إذا سمح لكل إنسان بدون تمييز قراءة الكتاب المقدس المترجم إلى لغة الشعب، فإن تهور البشر الناجم عند قراءته يسبب شرا أكثر من الخير، لذلك وجب الحصول على إذن خاص للسماح بقراءة الكتاب المقدس المترجم إلى لغة الشعب)[٢]

٣ – أزالت الاصلاحات الكاثوليكية عبادة القديسيين، وبأنه ينبغي أن ينظر إلى القديسيين على أنهم مثل عليا وشخصيات بطولية، إلا أنها لم تكن مستعدة للتخلي عن طقوسها وعن الطبيعة اللاهوتية لقداسات الكنيسة.

---

١ موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٩٠

٢ أضواء على الاصلاح الانجيلي، ص ٤٧

٤ – **قرر أنه ينبغي أن يكون مصدر الإيمان المسيحي هو الكتاب المقدس**، ولكن هذا الكتاب قد شرح من وجهة نظرهم من قبل "شهادات الاباء القديسين المعترف بهم والمجامع واحكام الكنيسة وإجماعها" [١]

ولهذا، فإن التقليد الكنسي يعد مصدرا تشريعيا مهما، حيث جاء في قراراته (إن المرجعين العظيمين لدى الدين المسحي هما الكتاب المقدس والتقليد الكنسي)[٢]

٥ – **أصبح الإعتراف الكاثوليكي مسألة سرية**، بين الفرد والكاهن مع صندوق الإعتراف واعتماده عام ١٥٦٥م، بعد أن كان عملا علنيا [٣].

٦ – **وُضِعَتْ نصوصٌ كانت ثمرة تفكير طويل**، كالتي تبحث في التبرير والتعاون بين الله والإنسان في الخلاص. والتي كانت تناقض وجهات النظر البروتستانتية حول الخطيئة والخلاص.

٧ – **وُضعت نصوص أخرى كانت أشدّ تأثّراً بمقاومة المذهب البروتستانتي**، فشُجبت بعض التصرّفات، لا لشيء إلاّ لأن البروتستانت كانوا يمارسونها، منها على سبيل المثال، استخدام اللغات القومية في الليترجية أو رتبة القدّاس[٤].

٨ – **على الصعيد الرعوي، اتُّخذت قرارات حول إنشاء الإكليريكيات حيث يتدرّب ويتعلّم المنتمون إلى السلك الكهوتي**، وكانت لتلك القرارات انعكاسات مهمة لمستقبل الكنيسة.

ومن نتائج الإصلاح الكاثوليكي أن ادعت أمم وسلطات إمبراطورية استقلالها عن البابا وعن الكنيسة الكاثوليكية [٥].

---

١ التاريخ المسيحي المظلم ص ١١٤

٢ أضواء على الاصلاح الانجيلي، ص ٤٧

٣ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١١٦

٤ انظر: موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٢٩٠–٢٩٣

٥ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٢٩ و اصول التاريخ الاوربي الحديث ص ١٢١

وعند النظر بعين العدل في قرارات هذا المجمع، ندرك أن كل تلك القرارات الإصلاحية لهذا المجمع هي من أجل مجاراة الكنيسة البروتستانتية، ليس إلا، ويتحقق من صدق ذلك، بالنظر إلى تلك القرارات، فقرار المجمع بإزالة حياة الترف والبذخ، وإلغاء امتيازات السلك الكهوتي، هي نتيجة حتمية لرفع البروتتستانت لواء محاربته، ومثله كذلك السماح بقراءة الكتاب المقدس من قبل الشعب.

وأما القرار بازالة عبادة القديسيين واعتماد التوراة كمصدر ملهم والتعاون بين الله والإنسان، هو رد فعل لرأي الكنيسة البروتستانتية في اعتماد الكتاب المقدس كمصدر أساسي لفهم الإيمان، دون الحاجة إلى وسائط بشرية.

وأما قراراه بمسألة التبرير ومسالة الفغران، هو بمثابة مجاراة الكنيسة البروتستانتية التي أقرت ذلك وزيادة.

وأما قرار المجمع بشجب تصرفات البروتستانت ومنع بعض اللغات القومية المستعملة من قبل البروتستانت، فهو من أجل محاربة الكنيسة البروتستانتية، وهذا هو شأن الباطل إذا جوبه، ولو كان بباطل مثله، فالكنيسة الكاثوليكية لم يدر في خلدها أن تنتقد من بني جلدتها أو تهاجم من داخلها وعندما تم ذلك كان القرار الطبيعي أن يهاجم أولئك المنتقدون بل ويحكم عليهم بالهرطقة واللعن والحرمان.

وأما القرار بإنشاء الاكليريكيات هو بمثابة موقف الند للند للكنيسة البروتستانتية التي لا تجعل لكهنة الكنيسة أو رؤوسها حق السلطة المطلقة بين أتباع الديانة، ولعل رواد الكنيسة الكاثوليكية رأوا أنهم مضطرين إلى مثل هذا القرارات، ورأوا أنه لم يعد يمكن السكوت على انتشار الكنائس البروتستانتية التي باتت تهدد وجود الكنائس الكاثوليكية.

مما يدل على تفعيلهم لهذا القرار عقب صدوره نظرا لاهميته في وقف الزحف البروتستانتي الذي اضحى شبحا مخيفا لكهنة الكنيسة البابوية.

ولهذا يمكن أن يقال، أن هذا المجمع لم يخرج بإصلاح أي شي داخل الكنيسة الكاثوليكية بل تشبث بجميع المعتقدات والتقاليد الكنسية ودافع عنها في وجه الكنيسة البروتستانتية.

وعلى كل حال، فهذه القرارات هي القشة التي تعلق بها باباوات الكاثوليكية في سيرهم في مواجهة البروتستانتية بل ومواكبتها.

ثالثا: المجمع الفاتيكاني الاول:

تعد قرارات المجمع الترنديتي السابق تقدما نحو الخلف من قبل الكنيسة الكاثوليكية، التي أصبحت ترى أنها مجبرة على ذلك التقهقر، فقدمت تلك التنازلات السابقة، إلا أن ذلك لم يرضي كل المنتمين إليها، فلم يعد البعض يرغب في إصلاح للكنيسة، بل نادى بإسقاط عقائد الكنيسة بعضها أو كلها.

لقد كانت الحاجة ملحة من الناحية الروحية والناحية السياسية لعقد مجمع تشاوري للنصارى، فعقد البابا بيوس التاسع على عقد مجمع فاتيكاني إصلاحي، ومن ثم أرسل لجميع البطاركة وغيرهم من شتى الكنائس للإجتماع، إلا أن هناك جملة من الكنائس ردت هذه الرسالة ورفضت الحضور، خصوصا بطريك القسطنطينية انثيموس الذي رد الرسالة غير مفضوضة أصلا، مشيرا إلى أن كنيسة روما قد ابتعدت عن التقليد والتعاليم، وفعل مثله بطاركة الأرمن واليعقابة والاقباط، وفي ١٣ ايلول □□□□ م أرسل إلى البروتستانت يحضهم على الإجتماع، إلا أن البروتستانت كان ردهم كرد الارثوذكس أو أعنف منه، وعلى كل حال، فقد أرسل بعضهم مندوبين لهم، مع حضور بعض مطارنة الكنائس والبطاركة وغيرهم، فحضر ٧٧٤ اسقفا من مجموع ١٠٥٠ أسقف كاثوليكي حضروا من القارات الخمس، و٥١ أسقفا من الكنائس الشرقية، إلا روسيا فقد منعت السلطات حضور أساقفة الكنيسة.

وعقد هذا المجمع الذي سمي بالمجمع الفاتيكاني الأَوَّل مابين عامي (١٨٦٩-١٨٧٠م) [١]

---

١ councils and assemblies - the same - page ٣٣٣ و .councils and assemblies cambridge university press ١٩٧١ G- BRITAIN نقلا عن الشرقيون في المجمع الفاتيكاني الاول وردة الفعل الارثوذكسية والبروتستانتية، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص ٣ وص ٣٠وص ١٤ وص =

وقد كان هناك موضوعين رئيسيين لمناقشتهما في هذا المجمع:

وهما:

١ – طبيعة الإيمان في التعاليم الكاثوليكية.

٢ – وكذلك طبيعة الكنيسة وسلطاتها.

أما من ناحية الإيمان، فقد قرر المجمع وجود خالق أسمى، مناقضا بلك التعاليم المادية الإلحادية، والمذهب القائل بوحدة الوجود، ومذهب الربوبية، الذي يعترف بوجود رب، لكن لا يعترف بأديان منزلة، ويدعوا إلى الإيمان بدين طبيعي، مبناه على العقل.

إلا أن هذا المجمع لم ينفي العقل، كما نفته المجامع قبله، ولم يعطه منزلة رفيعة، كما أعطته النظريات الحديثة، وإنما قرر المجمع أن العقل يدل على الإيمان، لكنه ليس الوحيد الدال عليه، بل لابد من قبول سلطان الله، ومع ذلك، فالعقل يدلنا على الإيمان، إلا أنه لا يجلس مجلس الحاكم على أمور الدين[١].

وأما من ناحية طبيعة الكنيسة وسلطاتها، فقد قرر في هذا المجمع ضمن ما قرر، عقيدة العصمة البابوية، أي أن البابا معصوم عن الخطأ حين يحدّد العقيدة الدينية[٢]..

وكان هذا القرار حجر عثرة كبيراً في طريق وحدة الكنائس المسيحية، مع أن فكرة عصمة البابا كانت متداولة منذ زمن، بين الكاثوليك، فمنهم من رآها كتعويض للباباوات، لتقلص سلطتهم، ومنهم من رآها ضرورة حتمية حتى لا تسقط الكنيسة، نتيجة الضغط العنيف من قبل الحكومات المناوئة للبابوية وللكنيسة برمتها، وهذا نص العصمة: (الحبر الأعظم الروماني

---

١٢ مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

١ انظر: موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٣٠٨

٢ انظر: علم اللاهوت النظامي، القس جمس انس، ص موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الاصلاح الديني، بقلم: كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٣٠٩–٣١٠

حين يتكلم من على الكاتدراية حين يمارس مهمة الرعاية وتعليم المسيحيين هو يحدد بأولوية سلطته الرسولية العقيدة المتعلقة بالإيمان أو التقليد التي تهم الكنيسة الجامعة وهو يملك بواسطة المعونة الإلهية التي وعد بها عبر القديس بطرس العصمة التي بها شاء المخلص الإلهي لكنيسته تحديد العقيدة المتعلقة بالإيمان والأخلاق هذه التحديدات من الحبر الروماني غير قابلة للمناقشة من نفسها وليس من موافقة الكنيسة) بالإضافة إلى إدانة وتنديد بكل أشكال المادية والإلحاد والعقلانية والدعوة إلى التبشير بالمسيحية بين كل سكان العالم أجمع[١].

هذه أهم القرارات التي صدرت عن هذا المجمع الإصلاحي الكاثوليكي، الذي عقد في وقت من أحلك الأوقات التي مرت على الكنيسة، فبينما تعكف الكنيسة البروتستانتية على قصقصة أطراف الكنيسة الكاثوليكية من جوانبها، ينخر الإلحاد والعلمانية والثقافات الإلحادية في أوساطها.

ولهذا فإن الناظر في هذه القرارات الفاتيكانية ليرى بعض التناقضات في أحكامها والتضاد في تعاليمها، فبينما يعتبر هذا المجمع أن العقل يقف موقف الحاكم على أمور الدين، نراه يحرم المادية والعقلانية والعلمانية بجميع أشكالها، ثم نراه يحكم بعصمة البابا، فكأن تلك القرارات أردات أن تجمع بين المتناقضات، وتصلح بين المتضادات.

فإذا حكم العقل في الأمور الدينية فأول ما يرده وينبذه هو عصمة البابا، خصوصا وأن الدعوات المترادفة للحط من شأن البابوات في أوجها آنذاك.

---

١ انظر: page ٣٣٣ - the same - councils and assemblies. و councils and assemblies cambridge university press ١٩٧١ G- BRITAIN نقلا عن الشرقيون في المجمع الفاتيكاني الاول وردة الفعل الارثوذكسية والبروتستانتية، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص ٣ وص ٣٠وص ١٤ وص ١٢ مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

ولهذا فإن هذا القرار قد أفرز فجوة لا تندمل بين الكنيسة الكاثوليكية وغيرها من الكنائس، إلا أنه أفرز امرا خطيرا بين أوساط المسيحيين الكاثوليك الذين رأوا (بموجب هذا التعليم أن الكنيسة قادرة على أن ترشدهم وتحررهم من المسؤولية الشخصية في أمور الدين وتحكم في كل المسائل الدينية لأجلهم وتخلصهم من لزوم البحث عن ماهية الحق وتؤكد لهم خلاصهم بمجرد خضوعهم لها وتحمل عنهم الخطا وتوزع عليهم النعمة وتفتح لهم باب السماء)[١]

كيف لا ؟ وقد أصبح في اعقادهم ما يقوله البابا ليس فيه أدنى شك أو ريبة في أنه قال مايريده الله، بعصمة الله له.

وعلى كل حال، فإن قرارات هذا المجمع لم تقابل بترحاب ولا بقبول عند طوائف النصارى، سوى الكاثوليك، فقد ذكرت النشرة الشهرية للكنيسة الانجيلية (١٨٦٩-١٨٧٠) تعليقها على قرارات هذا المجمع ما نصه:(المجمع الروماني يشتغل بوسائط لاستعباد الخلق إلى نفسه ولأجل حفظ سلطانه وسطوته على أجساد الناس وأموالهم ونفوسهم هنا وفي الآخرة، هذا المجمع لم يقصد به خير الكنيسة عموما، كما ادعى أوليائه بل لإنفاذ بعض الغايات الخصوصية المتعلقة بالرئاسة التي يدعى بها اسقف روما) [٢]

ويستدل البروتستانت على بطلان هذا القرارا (بدليل عدم تعيين الكتاب نظاما خارجيا للكنيسة فلم يقم الأساقفة كما نراهم اليوم كما نستدل من التاريخ الى بعد عصر الرسل بزمن طويل كما أن الرياسة دخلت الكنيسة بالتدريج وهي غير مثبتة من الكتاب بل من

---

١ علم اللاهوت النظامس، القس جمس انس، ص

٢ (٦٣٨) the american presbyterian review - USA - PAGE نقلا عن الشرقيون في المجمع الفاتيكاني الاول وردة الفعل الارثوذكسية والبروتستانتية، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص٤٥ وتكوين العقل الحديث، جون اندل، الترجمة العربية، ٢/٢٣١

التقليد لأن بطرس لم يكن رئيسا بدليل مساواته بيعقوب ويوحنا[1])[2] وغيرها من الادلة التي استدلوا بها في إثبات بطلان قرار المجمع بعصمة البابا.

فيمكن أن يقال إن هذا المجمع الذي أريد به إصلاح الكنيسة البابوية ووحدة الكنائس المسيحية قد وسع الرقعة على الكنيسة الباوية واتسعت دائرة الخلاف بين الكنائس بموجبه ولم يحصد النتيجة المثمرة التي تشوف لها زعماء الكنيسة الكاثوليكية.

رابعا: المجمع الفاتيكاني الثاني(١٩٦٢-١٩٦٥م):

لئن كان المجمع الفاتيكاني الأول أصدر قرارات تحرم النظريات والأفكار الجديدة، كالعقلانية والعلمانية وغيرها، ورد على الكنائس المعادية للكاثوليكية كالبروتستانتية وغيرها، في حرب مريرة ضد أعدائها ومناوئيها، في حرب مريرة كحرب عملاق خائر من أثر الطعنات التي تلقاها، فإن المجمع الفاتيكاني الثاني هو عصر جثوم ذلك العملاق بعد أن هوى نحو الأرض، فلم تعد الكنيسة قادرة على الوقوف ، حيث لم تعد لها تلك الخطابات الرنانة في وجه مخالفيها بل متابعيها أحيانا، ولم تعد قراراتها نابعة عن ما ارتئاه الباباوات المعصومين والقديسيين الكهونتيين.

لقد كان المجمع الفاتيكاني الثاني أقل ما يقال عنه، هو مجمع عصرنة الكنيسة وفتحها على العالم المعاصر، بعد أن عجزت عن الوقوف في وجه التيار المتلاطم من شتى الاتجاهات التي كادت أن تعصف بالكنيسة ورجالها، فرأت الكنيسة أن تتماشى هي مع النسيج الجديد المنحل تدريجيا عن قيود الدين، أولى من الوقوف في وجهه، ونصب المشانق لدعاته ورجاله، فأصبح هَمُّ الكنيسة ليس محاربة الخصوم بقدر ما هو إيجاد لغة تُكلِّم بها العالم الذي تعيش فيه.

---

١ غلاطية ٢/٩

٢ علم اللاهوت النظامس، القس جمس انس، ص

في خضم كل ذلك، لم يكن أمام آباء الكنيسة سوى موافقة التيار، لأنه لم يعد بوسعهم صده ولا الحد منه، فدعا البابا يوحنا الثالث والعشرين[١] إلى عقد مجمع فاتيكاني ثاني، في الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٩م، وفي اليوم التالي لإعلان المجمع، علقت جريدة " الاوسرفاتوري رومانو" على هذا النبأ بما يلي: (إن المجمع في نظر الأب لا يهدف إلى خير الشعب الكاثوليكي بل يسعى إلى أن يكون نداء إلى الجماعات المنفصلة يدعوها إلى الوحدة التي باتت تصبوا اليها نفوس كثيرة على وجه الأرض) [٢]

ولقد أراد البابا من عقد هذا المجمع إعادة النظر في المشاكل التي كانت تتعرض لها الكنيسة الكاثوليكية، ولذلك حاول أن ينظم حياة الكنيسة الداخلية وعلاقتها مع العالم الخارجي، مع باقي الكنائس واللأديان، ولذلك لم يعط العلمانيون أهمية تذكر في ثنايا هذا المجمع[٣] رغم تصريح الامين العام لهذا المجمع السيد فيتو رينوفيرو نيز بقوله: (لا شيء يحول دون مشاركة العلمانيين ودون الإدلاء بملاحظتهم واقتراحاتهم، إنه لشيء نتمناه لأنهم بصنيعهم هذا يشاركون في المجمع بطريقة فعالة، ولو بطريقة غير رسمية) [٤]

---

١ هويوحنا بولس الثالث والعشرين ولد عام ١٩٢٠م واغتيل عام ١٩٨١م قام بزيارات كثيرة إلى عدة قارات. انظر: المنجد في الاعلام. ص ٦٢٣

٢ Laurentin. Rene: L'enjeu du concile, Seuil, Paris, ١٩٦٢ p. ٩٨ نقلا عن المجمع الفاتيكاني الثاني وعلاقته مع بقية الكنائس والاديان، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص ٢-٣

٣ انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني وعلاقته مع بقية الكنائس والاديان، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص٣

٤ Laurentin. Rene: L'enjeu du concile, Seuil, Paris, ١٩٦٢ p. ٩٨ نقلا عن المجمع الفاتيكاني الثاني وعلاقته مع بقية الكنائس والاديان، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص ٣

لم يكن لدى البابا يوحنا الثالث والعشرين أفكارٌ واضحة حول محتوى المجمع، فعيّن له هدفين كبيرين وهما: ١ – تجديد الكنيسة والرسالة في عالم يتبدّل بسرعة، ٢ – العودة إلى وحدة المسيحيين التي كان ينتظرها وشيكة، كما كان المسيحيّون الأوائل ينتظرون عودة المسيح.

بعد دعوة البابا يوحنا الثالث والعشرين عقد هذا المجمع في دورته الأولى في خريف عام ١٩٦٢م وحضره ٢٤٠٠ من أصل ٢٨٠٠ مدعوّ من أساقفة ورؤساء عامّين.

تجمع فيه من كلّ القارّات والأعراق ممثّلون. مع وجود مراقبين مسيحيين أرثوذكس وإنكليكان وبروتستانت وقد ازداد عددهم من ٣١ في بدء المجمع إلى ٩٣ عند نهايته وفي الدورات اللاحقة كان هناك ٣٦ علمانياً من بينهم سبع نساء.[١]

وقد رحب بهم البابا أيما ترحيب عند حضورهم قائلا لهم: (أما أنتم فاقرأوا في قلبي تجدوا فيه أكثر مما على لساني، إن وجودكم الغالي هاهنا،والتأثر الذي يعصر فؤادي وتأثركم الذي لا أشك فيه البتة، إن كل هذا ليدعوني إلى أن أبوح لكم برغبة قلبي الذي يتحرق للعمل في سبيل تسريع الساعة التي تتحقق فيها صلاة يسوع في العشاء الاخير) [٢]

ولكن القدر لم يمهل البابايوحنا الثالث والعشرون، فما لبث أن توفي عام ١٩٦٣م فانتُخب بابا جديد وهو الكاردينال مونتيني، فأخذ اسم بولس السادس. وقرّر البابا الجديد سريعاً متابعة أعمال المجمع، وانتهت أعمال المجمع في كانون الأول(ديسمبر) ١٩٦٥م.[٣].

ويمكن إيجاز أهم قرارات هذا المجمع الإصلاحي فيما يلي:

---

١ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان. و موقف الكنيسة الكاثوليكية من الاسلام بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، كريم اللحام، ص ٧

٢ D.C. ٤ novembre, ١٩٦٢ نقلا عن المجمع الفاتيكاني الثاني وعلاقته مع بقية الكنائس والاديان، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص ٤

٣ مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان

أ – **لم يأتِ المجمع بأيّ تحديدات أو إدانات**، كما أنه لم يُصدر أيّ حرم، كما كانت الحال في المجامع السابقة، ولم يلغ عصمة البابا، ولا القول بأن الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة الجامعة، وأنها هي كنيسة المسيح الحقيقية، بل أراد المجمع على وجه العموم أن يكون مجمعاً رعويّاً يتوجّه بالكلام إلى إنسان اليوم، وكان كل همه هو تصحيح نظرة الكنيسة إلى ذاتها، وإلى علاقتها بسائر الكنائس وسائر الديانات والعالم أجمع.

ب – **يشدّد على وحدة الوحي**، بحيث لا يجوز التمييز بين الكتاب المقدّس والتقليد الشفوي، فالوحي ليس مجمّداً في نصّ، بل إنه محفوظ في الشعب المؤمن، وكله صادر عن الله سواء في النص أو التقليد.

ج – **لا يجوز اتّهام المسيحيين غير الكاثوليك بخطيئة الانفصال**، ويطلب إلى الطوائف المسيحية المختلفة أن تنظر أولاً إلى الأمور المشتركة وهي المسيح والإنجيل.

د – بين المجمع مهمة الأساقفة الرعوية وعمل الكهنة الرعوي وحياتهم.

هـ – أثبت وأكد أنه على الكنيسة أن تنشر التنصير في العالم أجمع وأن تبشر بالإنجيل وعد هذه مسؤولية كل إنسان مسيحي سواء كان اكليركيا أو علمانيا.

و – **حاول المجمع اكتشاف ما تحتفظ به سائر الديانات من معرفة الله**، بدءاً بالديانات المسمّاة بدائيّة، حتى التي تشترك في تراث الوحي التوحيدي، كاليهودية والإسلام، وبين أوجه الشركة بين المسيحية والاسلام، وبين المسيحية واليهودية و"تأسف الكنيسة للبغض والإضطهادات، ولكلّ مظاهر محاربة الساميّة التي مهما كانت حقباتها وفاعلوها، وُجّهت إلى اليهود".

ز – **الأخذ في الاعتبار تغيّرات هذا العالم**، التي كانت أساس عدّة نزاعات وأخطاء في الماضي، كما يجب اعتبار الإلحاد كما هو والبحث عن أسبابه.

ح – أثبت الحرية الدينية وأنه على الفرد اختيار أي دين يعتنقه.

ط – الكنيسة الكاثوليكية لا يقتصر الخلاص في أتباعها فقط، بل جعل الله الخلاص في كنائس وأديان أخرى أيضا[1].

والواقع أن ماجاء في هذا المجمع يعد نقلة كبيرة، وانفتاحا لم يسبق له مثيل من الكنيسة البابوية، التي كانت مضرب الأمثلة في التعصب المقيت، خصوصا، ماجاء في احترام الديانات الاخرى، خصوصا في اعتمادها سبل الخلاص حتى ولو كان الانسان تابع لإحدى الديانات أو الكنائس، بل والأبعد من ذلك هو اعتبار الإلحاد كما هو، فلم يجابه أو ينتقد، وهذا يعد في حقيقته أشبه بتنازلات الخائر الضعيف، بعد أن رأت الكنيسة نفاد كل ما تبقى لديها من عناصر القوة، وفي الحقيقة، لم تكن هذه الإصلاحات سوى تماشيا مع الأجواء العامة في المجتمع الغربي الذي لم يعد يحفل ببابا، ولا بكنيسة، ولا بمجامع، ولا غيرها.

خامسا :الجهود الفردية لبعض الباباوات لاصلاح الكنيسة:

وهذه الجهود الإصلاحية كانت اهتمامات ومساهمات فردية، من بعض باباوات الكنيسة الكاثوليكية، دون مساندة تذكر من قبل مجامع أو حكام وخلافه، وهذه الإصلاحات هي من وجهة نظر الكنيسة البابوية، ولكنها لاترقى إطلاقا إلى طموح الإصلاحين من المخالفين لهم في التوجه أو المعتقد، بل حتى إنها لا ترقى أحيانا لطموح الإصلاحيين من أتباع الكنيسة البابوية نفسها، ويمكن أن يذكر أهم أولئك البابوات الذين كانت لهم تلك الجهود الإصلاحية فيما يلي:

---

١ انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني، ترجمة الاب حنا الفاخوري، المكتبة البولسية، ط١، ١٩٩٢م والوثائق المجمعية ' ترجمة يوسف بشارة والمطران عبده خليفة وفرنسيس البيري دار الكتاب المفضل، ط١، ١٩٩١م وواعمال المجمع الفاتيكاني الثاني، ترجمة: المسرة جونية لبنان، الجزء الاول، المطبعة البولسية ١٩٦٦م مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان و المجمع الفاتيكاني الثاني وعلاقته مع بقية الكنائس والاديان، جامعة البلمند، معهد القديس يوحنا اللاهوتي، www.orthodoxtube.org ص ٤– ٣٣ وموقف الكنيسة الكاثوليكية من الاسلام بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، كريم اللحام، ص ٢٥

١ – **البابا بيوس الخامس**(١٥٦٦-١٥٧٢م): جعل في مقدمة اهتماماته محاربة الهراطقة والأتراك أي المسلمين في موقعة ليبانتي(Lepante) عام ١٥٧١م ونشر على التوالي "كتاب التعليم المسيحي الروماني" و "كتاب القداس الروماني". وأراد هذا البابا أن يكافح الفوضى الطقسية، ففرض نصّاً موحّداً للقداس وطلب إلغاء الليترجيّات التي لم يمضِ على وجودها أكثر من مئتي سنة. [١]

٢ – **البابا غريغوريوس الثالث عشر**(١٥٧٢-١٥٩٣م): قام بإصلاح التقويم، فحذف من سنة ١٥٨٢م عشرة أيام من ٤ إلى ١٥ تشرين الأول(أكتوبر) لكي تستعيد الفصول تواريخها المألوفة. وأقام سفراء ثابتين لدى الملوك.[٢]

٣ – **البابا سِكْستُس الخامس** (Sixte- Quint) (١٥٨٥-١٥٩٠م): أقام للكنيسة حكماً مركزياً يديره ١٥ مجمعاً رومانياً، وهي عبارة عن وزارات تساعد البابا في إدارة شؤون الكنيسة والدولة البابويّة. ووُزّع الكرادلة على تلك المجامع، فبلغ عددهم السبعين. وكان المطلوب هو القضاء على التجاوزات وتثقيف المسيحيين وتكوين كهنة الغد. ولكنهم كانوا، إلى جانب ذلك، يرغبون في مواجهة الإصلاح البروتستانتي واستعادة ما فُقد، ولو باستخدام السلاح إذا اقتضى الأمر. وفي تلك الفترة تأسست العديد من الرهبانيّات الرجالية والنسائية والتي أصبحت رافداً كبيراً في انتشار الكثلكة خارج أوروبا إبّان الحملات التبشيرية والاستعمارية.[٣]

---

١ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

٢ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

٣ فقد تجاوز عدد اليسوعيين الذين أنشأ رهبانيتهم أغناطيوس دي لويولا(١٤٩١-١٥٥٦م) في خدمة الكرسيّ الرسولي الروماني مباشرة، عشرة آلاف سنة ١٦٠٠م، وخمسة عشر ألفاً سنة ١٦٥٠م. وفي مطلع القرن السابع عشر أصبح الكبّوشيون عشرين ألفاً، مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

٤ – البابا بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨م): في عهد هذا البابا تمّت الوحدة الإيطالية ففقد الكرسي الرسولي الروماني ممتلكاته، وانعزل في الفاتيكان وكذلك خلفاؤه من بعده. اتّخذ البابا بيوس التاسع موقفاً من أضاليل عصره في وثيقتين. في الأولى شجب تجاوزات العقلانية والاشتراكية والليبرالية. والثانية، وهي تسمّى "القائمة" (Syllabus) تضمّ أربعاً وعشرين قضية مشجوبة. بدت القضية الأخيرة وكأنها تتضمّن رفضاً للمجتمع الليبرالي المعاصر بأسره. فابتهج الكاثوليك المتشدّدون، أما المعادون لرجال الدين فسخروا، واستولى الدهش على الكاثوليك الليبراليين[١]

٥ – يوحنا بولس الثاني:

وُلدعام ١٩٢٠م. انتخب بابا(وهو البابا الرقم ٢٦٤ في تسلسل باباوات روما) في الدورة الثامنة لاقتراع الكرادلة. خلف البابا يوحنا بولس الأول الذي لم تدم بابويّته سوى أسابيع، واتّخذ اسم يوحنا بولس الثاني.

ويمكن أن توجز أهم إصلاحاته الكنسية فيما يلي:

ا – اهتم اهتماما كبيرا بالانفتاح على سائر الديانات والمذاهب، وقد جاب لتحقق ذلك أنحاء العالم في زيارات رعوية وانفتاحية، وهكذا بلغت رحلاته الخارجية ١٠٤ رحلات لأكثر من ١٢٧ بلداً حتى سمي " البابا الطائر".

ب – أدخل كثيرا من أفراد الشعب في السلك الكهنوتي، ولو كانوا من خارج الكنيسة أو العلمانيين، فقد أعلن قداسة ٥٧٨ شخصاً، ورفع إلى رتبة "طوباوي" أكثر من ١٣٧٨ شخصاً متجاوزاً بذلك جميع أسلافه في تاريخ الكنيسة.

ومن وجهة نظر المسيحيين فإنه قد أقدم على ذلك ليقول للمؤمنين بأن الجميع مدعوُّون إلى القداسة، وليجعل من الطوباويين والقديسين أمثلة حيّة للاقتداء بحياتهم وبطولاتهم الروحية. وبذلك يكون قد ساهم إسهاماً كبيراً في إحياء "التقوى الشعبية"

---

١ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

ج– أسهم في نزع صورة الرجل الأبيض الغربي عن الكنيسة الكاثوليكية وخصوصاً عن مجمع كرادلتها من خلال سيامته عدداً وافراً من الكرادلة الآسيويين والأفارقة ومن أميركا اللاتينية.

د – تميّز بنضاله ضدّ النظام الشيوعي.

هـ – قدّم صورة عن مسيحية إنجيلية غير متغطرسة عندما طلب المغفرة عن الإساءات التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية، في حقب مختلفة من التاريخ كالاعتذار عن الحروب الصليبية، وعن محاكم التفتيش في القرون الوسطى، وعن اضطهاد الكنيسة لبعض العلماء، وعن الإبادة التي لحقت بالهنود الحمر، وعن اللاسامية حيال اليهود.

و – كان البابا يوحنا بولس الثاني من أكثر الباباوات احتراماً للدين الإسلامي لتركيزه الدائم في لقاءاته مع المسلمين وفي أثناء زياراته لبلدان إسلامية عن الجوامع المشتركة بين المسيحية والإسلام. وبذلك يكون قد تابع ما انتهجه المجمع الفاتيكاني الثاني في تعاليمه حول الحوار مع الديانات الأخرى.

ح – على صعيد الحركة المسكونية التي تهدف إعادة توحيد الكنائس المسيحية، فقد قام البابا يوحنا بولس الثاني بخطوات عديدية لتحقيق تلك الوحدة. من تلك الخطوات المهمّة جداً نظرياً نشره في ٣٠ أيار(مايو) ١٩٩٥م رسالة عامّة بعنوان "فليكونوا واحداً" اقترح فيها –لحلّ مسألة أوّلية بابا روما على سائر الكنائس المسيحية وهي العقبة الأساسية في تقدّم وحدة الكنائس– أن يَنْكَبَ اللاهوتيون على دراسة موقع أسقف روما وسلطته كما كانت تمارَس في الألف الأول للمسيحية(أي قبل أن تنقسم الكنائس) والعودة إلى ما كان قائماً في تلك المرحلة. إلاّ أنّ هذا الاقتراح بقي حبراً على ورق، لا بل ازدادت سلطة أسقف روما(البابا) ومركزية تلك السلطة ازدياداً كبيراً حتى إن الكنائس المحلية الكاثوليكية، ببطاركتها وأساقفتها ومجامعها، أصبحت استشارية تحتاج قراراتها إلى موافقة الكرسي الرسولي.

ط – انتقد بشدّة الليبرالية المتوحشة المتمثلة بالعولمة الاقتصادية، ونادى بحقوق الإنسان.[1]

ز – بالنسبة للقضايا السياسية الاسلامية فقد وقف البابا يوحنا بولس الثاني موقفاً عادلاً حيث دافع عن القضية الفلسطينية في مطالبها العادلة والمحقة. وكان له موقف شجاع ومميّز في معارضة الحرب الأميركية على العراق. ولذا يقول في زيارته إلى فلسطين في عام ٢٠٠٠/٣/٢١م: (سلام للشعب الفلسطيني،سلام لجميع شعوب المنطقة،لا أحد يقدر أن يجهلكم هي المعاناة والآلام الت فرضت على الشعب الفلسطيني في السنوات الأخيرة.إن العالم كله يرى معاناتكم، وقد طال بها الأمر كثيراً، لقد اعترف الكرسي الرسولي دائماً بحق الشعب الفلسطينيفي وطن له، وبحقه في العيش بسلام وطمأنينة مع سائر شعوب المنطقة)[2]. فتبين أن الدعوات الإصلاحية الكاثوليكية كانت قبل الإصلاح البروتستانتي بأمد غير أن تلك الدعوات كانت توأد في مهدها وتجهز عليها من قبل الكنيسة البابوية،ولكن حينما ظهر الإصلاح البروتستانتي رأت الكنيسة البابوية أنها مجبرة على اتخاذ الإصلاحات الكنسية، وقاد اتخذت تدابير الإصلاح الكاثوليكي التي أرخت قبضتها عن العالم المسيحي بل حتى عن كثير من الثوابت المسيحية بعد ظهور الإتجاهات الفكرية المختلفة.

---

١ انظر: مقال بعنوان، الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، جيروم شاهين، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

٢ انظر: مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١١، العدد ٤٢، (ربيع ٢٠٠٠) ص ٢٤٤

المطلب الثالث
الثورة الفرنسية

تعد الثورة الفرنسية هي المنحنى الأخير والأخطر في مسيرة الإتجاهات المناوئة للكنيسة، نتيجة تمسكها بقانون الإيمان المسيحي –كما سبق –.

وقد كانت هذه الثورة هي إحدى ثمرات الاصلاح البروتستانتي –من وجهة نظر بعض المؤرخين– الذي لم يعد كافيا للحد من سلطة التعاليم الكنسية والقوانين الإيمانية المسيحية، مع أنه أسس لحرية الاعتقاد وعدم الخضوع للسلطات الدينية[1].

وهذه الثورة تعد حدثا طبيعيا لما أفرزه قانون الإيمان المسيحي من مقت لسلطة الكنيسة وابابواتها فثار النصارى على كل سلطة يمكن أن تدين رقاب الناس، فهذه الثورة وان كانت قد قضت على الدولة المتمثلة في الملكية والاقطاع الا انها قضت على الدين المتثمل في الكنيسة ورجالها [2]

والثورة الفرنسية تعد أم الثورات المتلاحقة التي مني خلالها رجال الكنسية بالهزيمة، ومرغت فيها أنوفهم بالوحل، ولذا يجدر معرفة ماهية الثورة؟، وما هو معناها؟، ومتى بدأت؟، وماهي أسبابها؟، وماهي انعكاساتها على النسيج الأوربي؟، وما هي أهم النتائج التي توصل إليها الثوار؟، وذلك فيما يلي:

أولا: تعريف الثورة الفرنسية وأهميتها:

يعتقد أن تعريف مصطلح الثورة هو: تغير مفاجئ وعميق في النواحي السياسية والاجتماعية في بلد ما، وقد يتم عن طريق العنف، أو استخدام القوة الشرعية، ولا تتبع في أحداثها

---

١ انظر: مقالة بعنوان: لوثر والاباء، مقالة نشرت بمجلة الهدى التي تصدرها الكنيسة الإنجيلية بمصر سنة ١٩٨٣م، بقلم المؤرخ الارثوذكسي حبيب بباوي

٢ انظر: قصة الحضارة ج ٣٩٧/٤٢ والثورة الفرنسية، حسن جلال،ص ٥ و تاريخ الثورة الرنسية،البير سوبول، ص ٥٦٤ والقرن الثامن عشر، عهدالانوار، موسنيه، رولان، واخرون، ٤٨٠/٥ وعصر الثورة الفرنسية، هربرت،ليفيير، ص ١٨٩

الوسائل المقررة لذلك في النظام الدستوري للبلاد[1] أو هي: تغيير جوهري في أوضاع المجتمع لاتتبع فيه طرق دستورية[2]. أو هي انقلاب في النظم القائمة المعروفة[3]

وقد انطبق هذا التعريف على الثورة الفرنسية التي تضافرت عدة عوامل جعلت من هذه الثورة نقطة تحول ليس على فرنسا فحسب، بل على العالم الأوربي أجمع[4] منها أنها أصبحت ثورة العقل الأوربي على نظام السخرة والإستعباد والظلم، ممثلا في الملكية والكنيسة والاقطاع[5] الذي فسره القديس توما الاكويني بأنه (نتيجة لخطيئة آدم)[6]

ومنها أن وثيقة حقوق الانسان التي صدرت عن الثورة كانت وثيقة عالمية حذت حذوها داستير الدول الأوربية وغيرها [7] لديمقراطتيها إلى جانب برجوازيتها، وليست كالثورة الإمريكية أو البريطانية التي كانت برجوازية محافظة بشكل ضيق[8] أضف إلى ذلك أن فرنسا تعد وجهة الحضارة الغربية، وأرقى الدول الغربية على مدى قرنين من الزمان، وقد كانت فرنسا رغم

---

١ انظر: معجم مصطلحات العلوم افلاجتماعية احمد زكي بدوي، ص ٣٥٩

٢ انظر: المعجم الفلسفي، جميل صلبيا، ص ٣٨١

٣ انظر: الثورة الفرنسية، حسن جلال، ص١

٤ تاريخ اوربا وبناء اسطورة الغرب،جورج قرم ص٤٤

٥ انظر: حقوق الانسان في فلسفة الثورة الفرنسية، أحمد باسل الرفاعي، ص ٣٣٨ و وموسوعة تاريخ اوربا العام، جوج ورولان موسنيه،ليفة، ص٣/٦٤-٦٧

٦ قصة الحضارة ٤٠٦/١٤

٧ انظر: التاريخ الاوربي الحديث من عصر تلنهضة الى مؤتمر فيينا، عبدالحميد وعبدالعزيز نوار البطريق،٣٧٩ والثورة الفرنسية، لويس عوض، ٩٣و١٠١ وحقوق الانسان في فلسفة الثورة الفرنسية، احمد باسل الرفاعي، ٣٣٤-٣٣٦ والتاريخ السياسي، رؤوف بك الجادرجي، ص ٦٠-٦١ وتاريخ الثورة الفرنسية، البير سوبول، ١٥٨-١٥٩ و١٤٠-١٤٣

٨ انظر: تاريخ الثورة الفرنسية، البير سوبول،ص ٥٩٥ والجمعيات الوطنية، صحيفة من تاريخ النهضات النهضات القومية، في فرنسا وامريكا والمانيا وبولونيا والاناضول، عبدالرحمن الرافعي، ص ١٦

الزخم الكبير الذي تحضى به بين مثيلاتها من الدول الغربية، إلا أنها لم تبتعد عنها في الحياة الاجتماعية والسياسية فضلا عن الدينية[1]

وبما أن فرنسا هي بذلك القدر والمقدار لدى أمم أوربا، كان من الطبيعي أن تؤثر تلك الثورة التي عصفت بها، على أمم أوربا بأجمعها، بل وحتى بأمم الشرق الذي كان تحت لواء الدولة العثمانية[2] حيث امتدت تأثير الثورة الفرنسية في أوروبا والعالم، بنمو الجمهوريات والديمقراطيات الليبرالية وانتشار العلمانية، وقد كان الفضل في تصدير الثورة للعالم الأوربي هو نابليون بونابرت[3] الذي غلا فيه بعض الكتاب حتى صوروه بأنه (صاحب الغزوات الكاسحة والعبقرية الفذة الذي لم يعرف لها العالم نظيرا منذ تحتمس الثالث ورمسيس الثاني والاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر فهو الذي صدر الثورة الفرنسية إلى العالم بعد أن أنقذها في فرنسا من الحكام الفاسدين...وجد نابليون أبناء الثورة الفرنسية يأكل بعضهم بعضا فوجه هذه الطاقة البركانية إلى الخارج ليأكل الفرنسيون غيرهم من الأمم)[4]

ثانيا: أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية:

هناك جملة من الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية يمكن إيجاز أهمها فيما يلي:

أ- الاعتقاد بأن ملوك فرنسا مؤيدين من الرب بعصمة الله،ولهذا تسلط أولئك الحكام القساة وأمثالهم من الإقطاعيين الجشعين الذين يسمون بالنبلاء على أفراد الشعب الكادح

١ انظر: أصول التاريخ الأوربي الحديث، فيشر،هربرت. ٢٥٩و١٣٨ و قصة الحضارة ١٢٢/٣٦ وتاريخ القرن التاسع عشر في أوربا والعالم، نور الدين حاطوم ٤٥/١ والثورة الفرنسية، حسن جلال، ص٣ وقصة الحضارة ٤٧٠/٢٣

٢ انظر: لمحات من تاريخ العالم، جواهر لال نهرو، ص ٧٤ ووالثورة الفرنسية عرض ونقد في ضوء التربية التربية الإسلامية ص ١١١ الثورة الفرنسية، البير سوبول، ص ٥٩٧

٣ انظر: النظرة السياسية، النظرة العامة للمعرفة السياسية، محمد طه بدوي، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٢٧

٤ الثورة الفرنسية، لويس عوض، ص ٧

وعلى العمال المتسلط عليهم بأنواع من التسلط والظلم بمباركة الكنيسة، بل تعد الكنيسة هي الوجه الثاني لأولئك الإقطاعيين[١]

ب – فساد دين الكنيسة وهيمنته على جميع مرافق الحياة، فلا يستطيع الأوربي أن يفكر إلا بما يلقنه إياه رجال الدين، ولا يفكر إلا بما يسمح له رجال الدين أن يفكر فيه، وعلى النحو الذي يسمحون له به، ولا يتعلم إلا بما يسمح له رجال الدين أن يتعلمه، وفوق ذلك، فإن رجال الدين لهم السلطة الكاملة على أرواح جميع الأوربين وأموالهم وأجسادهم، مما أوجد عزيمة قوية على التخلص من ذلك الجاثوم الطاغي.

ج – انتشار الفكر اللاديني ومدارسه المختلفة، والتي تؤدي جميعها إلى تقويض الدين واجتثاثه من النفوس، فقد قامت الثورة الفرنسية مشبعة بآراء الفلاسفة الإلحادية تجاه الدين مسقطة بذلك الحرمة والتقديس عن كل شيء [٢] حتى وصفت الثورة بالإلحاد، ووصف فلاسفتها المنظرون لها، أمثال روسو وفولتير ونحوهما بالملحدين[٣]، حيث إن فولتير اقتنع بفكرة الدين الطبيعي، ونادى بها، والتي ورثها عن سبينوزا وغيره من الفلاسفة اللادينيين، فسيبينوزا يقول في كتابه"رسالة في اللاهوت والسياسة":" ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السواء إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحق في إصدار القرارات أيا كانت أو التدخل في

---

١ انظر: قصة الحضارة ١٣/٣٦ وإدارة الحرب، فوللر ص ٢١ دراسات في التاريخ الاوربي الحديث محمد مظفر الادهمي ص ٨ و تاريخ أوربا والعالم الحديث عبدالعظيم رمضان ٣٠١/١ وتاريخ القرن التاسع في أوربا والعالم، نور الدين حاطوم ١/ ٤٧ Weigall al, David and Murphey, Mechael, European history Bppletts Educational, London,١٩٩٣,p٣١ نقلا عن التاريخ البدلوماسي،العلاقات الساسية بين القوى الكبرى، د/ممدوح نصار ود/ أحمد وهبان، ص٢٠ والنظرة السياسية، النظرة العامة للمعرفة السياسية، محمد طه بدوي، ص ٤٣ ومعالم تاريخ الانسانية هـ.ج. ولز، ٩٧/٤

٢ انظر: القرن الثامن عشر – عهد الانوار –،رولان واخرون، موسنيه، ٤٨٠/٥

٣ اانظر: الثورة الفرنسية والحلمة الفرنسية على مصر، وجدا سندسني، ص ٣٠,٣١,٤٠، وسيأتي عرض نظرياتهم في المباحث التاليه.

شؤون الدولة وعلى العكس يكون الاستقرار أعظم إذا اقتصروا على الإجابة على الأسئلة المقدمة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقيناً والأوسع قبولاً بين الناس "[1].

ثم نجد فولتير يكرر هذه الدعوى فيقول: (إن دين أهل الفكر دين رائع خال من الخرافات والأساطير المتناقضة وخال من العقائد المهينة للعقل والطبيعة ...لقد منع الدين الطبيعي آلاف المرات المواطنين من ارتكاب الجرائم ...أما الدين المصطنع فإنه يشجع على جميع مظاهر القسوة ... كما يشجع على المؤامرات والفتن وعلى أعمال القرصنة وقطع الطريق..ويسير كل فرد نحو الجريمة مسروراً تحت حماية قديسه)[2].

وأما موضوعات الأفكار السياسة والاجتماعية فقد استلهمها قادة الثورة ومشرعوها من أفكار جون لوك ومبادئه (بعد أن صاغوها وتقدموا بها على طريقتهم الفرنسية الجريئة)[3]

وهذه الأفكار قد ألقت بظلالها على زعماء الثورة الفرنسية، حتى إن قادة الثورة رفضوا الإشارة في الدستور إلى أن الكاثوليكية دين دولة وهذا ما جعل رجال الدين يقفون موقف العداء تجاه الثورة ورجالها [4]

د - **القوى اليهودية الماسونية الخفية،** فقد تغلغل المال اليهودي في تقوية الثورات، بل وفي إنشائها، مستغلين الغضب العارم المتأجج في نفوس الجماهير، ويظهر ذلك في منظمات الثورة الفرنسية المختلفة، كالجمعية التأسشيسة، ونادي اليعاقبة، وبلدية باريس، فنتج عن ذلك أن تبنت تلك الجماهير شعار الماسونية، وصرخت بها الجماهير في كل ميادين الثورة، ونادت بها بكل بلاهة وهي " الحرية والإخاء والمساواة" [5] بل إن المحافل الماسونية قد دعمت

---

١ ص:٤٢٦.

٢ مقتطفات من القاموس الفلسفي لفولتير:سلسلة تراث الإنسانية:٢٠٧/٨.

٣ كارل ماركس، سربست نبي، ص ٦٤

٤ انظر: الثورة الفرنسية والحلمة الفرنسية على مصر، وجدا سندسني، ص ٨٧ وقصة الحضارة ج٣٩٤/٤٢ وتاريخ الثورة الفرنسية، البير سوبول، ١٩١-١٩٢

٥ العلمانية ص ١٦٥ ومذهب فكرية ص ٧٥و٩٢ و ٤٤٥ وموسوعة السياسية، د / عبدالرحمن الكيالي ٩١٣/١ وأحجار على رقعة الشطرنج، وليام غاي كار ص ٧٥-١٠١

هذه الثورة دعما ظاهرا، بإمداده بالقادة المشرفين وبالمال[1] وقد صرح بذلك اليهود في بروتوكولات حكماء صهيون [2] فتقول البروتوكولات: (تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها الكبرى "إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا" وتقول:"كذلك كنا قديماً أول من صاح في الناس الحرية والمساواة والإخاء كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر"

وقد أعلن مجلس النواب الفرنسي هذه الحقيقة على الملا عام ١٩٠٤م المتضمنة للدور الماسوني في صناعة الثورة الفرنسية، فقابل النواب الحاضرون هذا الإعلان بالقبول[3]

هـ – الأسباب الاقتصادية: حيث كان الجوع وسوء التغذية منتشرًا بين الفئات الفقيرة في فرنسا، مع ارتفاع أسعار المواد الأساسية كالخبز إلى ارتفاع أسعار المحاصيل نتيجة الكوارث الطبيعية، وقد كان إفلاس الحكومة الفرنسية المالي والادراري وعجزها عن اتقدم حلا لمشكلاتها القتصادية والسياسية والاجتماعية سببا وجيها لقيام هذه الثورة[4]

فقد كان إفلاس الدولة بسبب التكلفة الكبيرة للحروب السابقة، لا سيّما بعد مشاركة فرنسا في حرب الاستقلال الإمريكية، مع ارتفاع الدين العام الذي تراوح بين ١٠٠٠–٢٠٠٠ مليون إلى جانب الأعباء الاجتماعية الناجمة عن الحرب وفقدان فرنسا ممتلكاتها الاستعمارية في أمريكا الشمالية وتزايد هيمنة بريطانيا التجارية أمام هذه النوائب الاقتصادية، مع انعزال الديوان الملكي في فرساي وعدم مبالاته بالطبقات الدنيا من الشعب إلى جانب ضعف

---

١ انظر: أحجار على رقعة الشطرنج، وليام غاي كار ص ٧٩و٩٠و٩١

٢ انظر: روتوكولات حكماء صهيون ص ٤٦ البروتوكولات:١١١،١٠٣.

٣ انظر: أحجار على رقعة الشطرنج، وليام غاي كار ص١١٢ و النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة، غازي محمد فريج، ٢٢٩–٢٦٧

٤ انظر: الموسوعة العربية الميسرة والموسعه ١٢٩١/٣

شخصية الملك لويس السادس عشر كل ذلك أسهم في إثارة الرأي العام ضد النظام الملكي.[1]

و – **إغراء الشعب الفرنسي المحروم بإعلان المبادئ العادلة** القائمة على أساس عقلي ومنطقي وإطلاق الشعارات العاطفية المثيرة كالمساواة والحرية والإخاء والعدالة[2]

ز – **الإنبهار بالحضارة الإسلامية** التي كانت تبهر الغربيين بالتقدم الحضاري والعمراني والاجتماعي وذلك بشهادات بعض المؤرخيين الغربيين[3]

كل تلك الأسباب مجتمعة كانت بمثابة المحفزات للشعب الفرنسي للثورة على كل شيء أمامه من قيم أو أخلاق أو مبادئ أو سلوك أو دين فضلا عن الكنيسة ورجالها، وهو ما سوف يتم تسليط الضوء عليه في الآتي:

ثالثا: قيام الثورة:

بدأت الثورة الفرنسية التي تسمى بالفرنسية Révolution française في عام ١٧٨٩، وشهدت السنة الأولى من الثورة القسم في شهر يونيو[4]، ثم الهجوم على سجن الباستيل في يوليو، وسقوطه في أيدي الثوار، وقد كان سقوطه (أهم علامة مميزة لانتصار الثوار وكان البداية الحقيقية لسقوط المجتمع الإقطاعي في فرنسا)[5]

---

١ انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٤٢/ ٤٥٧ والثورة الفرنسية والحملة الفرنسية على مصر، وجدا سندسني، ص ٥٨

٢ انظر: عصر الثورة الفرنسية، جورج ليفيير، مقدمة المترجم. ولمحات من تاريخ العالم، جواهرلال نهرو، ص ٧٦

٣ انظر: تاريخ أوربا الحديث، جفري برون، ص ١٦٩

٤ وهو ما يعرف بفسم الملعب انظر: تاريخ اوربا والعهالم الحديث، عبدالعظيم رمضان، ١/ ٣٢٩ ولمحات من تاريخ العالم، جواهر لال نهرو ص ٧٩ و الثورة الفرنسية، لويس عوض، ص ٥ ومعالم تاريخ الانسانية، هـ.ج،ولز، ٤/ ٩٨

٥ الثورة الفرنسية، لويس عوض، ص ٧و٩٩ وعصر الثورة الفرنسية،هربرت ليفيير، ص ١٦٠–١٦١

وقد كان شعار الثورة وقتئذ هو الحرية والإخاء والمساواة، ثم أعقبه صدور إعلان حقوق الإنسان والمواطنة في أغسطس[1].

أعقبت ذلك كثير من الفوضى العارمة التي عمت جميع انحاء البلاد[2]، ثم المسيرة الكبرى نحو البلاط الملكي في فرساي، وسيق الملك وأسرته في موقف ذليل وأجبر على التوقيع على وثيقة حقوق الانسان، تم أعدم الملك لويس السادس عشر في العام التالي، بتهمة الخيانة العظمى لقراره السفر الى خارج البلاد[3].

ثم ألغي النظام الملكي واعلن النظام الجمهوري في عام ١٨٩٢م[4]، وقد كانت التهديدات الخارجية قد لعبت دورًا هامًا في تطور الأحداث، حينما هددت بعض الدول الأوربية بالتدخل وشن الحرب على فرنسا، وهزم الثوار، لكن انتصارات الجيوش الفرنسية ساهمت ليس في كفء تلك الدول عن ذلك، بل في استعطاف زعماء تلك الثورة، فقد أدت انتصارات الفرنسسين في إيطاليا والمناطق الفقيرة المنخفضة الدخل غرب نهر الراين في رفع شعبية النظام الجمهوري، كبديل عن النظام الملكي، الذي فشل في السيطرة على هذه المناطق التي شكلت تحديًا للحكومات الفرنسية السابقة لعدة قرون[5] ورغم حدوث كثير من

---

١ انظر: الثورة الفرنسية، لويس عوض، ص ٧ وفلسفة الثورة الفرنسية.برنار غروتويزن، ص ٢١٨

٢ انظر: القرن الثامن عشر- عهد الانوار- رولان واخرون موسنييه، ٤١٥/٥ والثورة الفرنسية، لويس عوض، ص ٨ وتاريخ الثورة الفرنسية، البير سوبول، ١٢٨-١٢٩

٣ انظر: الثورة الفرنسية، حسن جلال، ١١٩-١٢٣ و١٢٦ وتاريخاوربا والعالم الحديث، عبدالعظيم رمضان، ٣٥٤/١

٤ انظر: عصر الثورة الفرنسية، هربرت ليفيير، ص ٢٠١ والتريخ السياسي، عثمان سلطان. ٢٣١/١

٥ انظر: عصر الثورة الفرنسية،هربرت ليفيير،٣٢٧ الثورة الفرنسية،لويس عوض، ١٧٦ التاريخ المعاصر، عبداتلعزيزي سليمان وعبدالمجيد نعنعي نوار، ص ٥٨

الخطوب و الحروب الطاحنة التي جرت لفرنسا بعد ذلك إلا أن وثيقة حقوق الإنسان ومبادئ الثورة لم تمس من قبل احد[1]

رابعا: نتائج الثورة الفرنسية:

أ – تقديس العقل:

أصبح العقل بعد الثورة الفرنسية له مكانة عظيمة وهو هو الحكم الفصل والميزان العدل والمشرع الحقيقي الذي لا يتطرق إليه الشك والخطل، وقد اعتمد في ذلك على عقول فلاسفة عصر التنوير، فجاء خطاب الثورة الفرنسية في صورة الخطاب العقلي المقنع، والنقاش المنطقي الناضج في تقنين القوانين، إلى جانب مقت الدين ونشر الإلحاد [2].

وبمقابل تقديس العقل أصبح الدين – في نظرهم – هو الوجه المضاد للعقل، وأصبحت مظاهر الاستهزاء بالدين من المظاهر المألوفة، حتى وصل الحد إلى داخل جدران الكنيسة، فقد تجرأ بعض الفنانين والموسيقيين على وضع امرأة شبه عارية، على كرسي داخل الكنيسة، ثم سجدوا لها، بعد أن طردوا منها القساوسة والرهبان[3] وسعوا في عقلنة معتقدات الكنيسة ومراجعتها، في ضوء العلم الحديث، واعتقدوا أن العقل البشري قادر على فهم معطيات الكون، وتسخيره في صالحه، دون الحاجة إلى التفسيرات الدينية واللاهوتية لفهم الكون[4].

---

١ انظر: التاريخ السياسي، عثمان سلطان. ١/٣١٩-٣٢١ والتاريخ الحديث – اوربا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية ص ١١٣ – ١١٥

٢ انظر: تاريخ الثورة الفرنسية، البير سوبول، ص ١٣-١٤ ولمحات من تاريخ العالم، جواهر لال نهرو، ص٧٥-٧٦

٣ انظر: تاريخ اوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، محمد محمد صالح، ص ٨٢-٨٧ والثورة الفرنسية، حسن جلال، ص٢٠٢

٤ اانظر: التاريخ السياسي، رؤوف بك الجادرجي، ص ٦٨ والتاريخ السياسي،عثمان سلطان، ١/٢٧٠

ب – نشر الاراء الإلحادية ومحاربة الدين ومقته:

لقد انتشرت كثيرمن الآراء الإلحادية في تلك الفترة انتشار النار في الهشيم، وتعددت كثير من المدارس الفلسفية، التي كانت كلها تصب في بوتقة الإلحاد، وكانت كلها ترى أن (الطبيعة حلت محل الغيب والعلم محل اللاهوت.. وأن العالم تديره الطبيعة بقانونها المحكم فالتقدم يبنى على فهم هذه الطبيعة وقانونها)[1]

ج – صياغة دستور جديد

لقد نجحت تلك الثورة نجاحا باهرا في شتى المجالات الدينية والإجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغيرت معالم الدستور الفرنسي بل واختلقت دستورا جديدا لم تعرفه فرنسا ولا أوربا بأسرها، ذلك الدستور الذي اعتمد فيما بعد كوثيقة لحقوق الإنسان العالمي.

د – اعتبار العلمانية دينا ومذهبا:

كان النتيجة الطبيعية لقيام الثورة على آراء الفلاسفة الملاحدة وغيرهم، هو بغض الدين ورجاله، بل وشنوا حملة شعواء على كل ما يتعلق بالدين، فقد أعلن في عام ١٧٩٤م أن فرنسا دولة علمانية، ليس لها دين دين رسمي، رغم أن أغلبية الشعب كانوا على المذهب الكاثوليكي.

وتحامل قادة الثورة على الكنيسة ورجالها، فجردت الكنيسة من كثير من الحقوق التي عليها والتي لها أيضا، فجردت من ممتلكاتها باعتبارها موارد للدولة، وألغي نظام العشور، وأغلقت غالب الكنائس أو أهملت، وترك النفقة عليها وقطعت الصلة بين كنائس فرنسا والكنيسة البابوية باعتبارها كنائس قومية، وأصبح تعيين القساوسة يتم بالإنتخاب الشعبي، بدلا من تعيينات البابا، والزم رجال الدين بالقسم على دستور الدولة العلماني، ومنع عامة الناس من

---

١ الثورة الفرنسية عرض ونقد في ضوء التربية الاسلامية، د/ عدنان حسن باحارث، ص ٩٧ وموسوعة تاريخ اوربا العام، جورج ورولان مسنيه ليفه ٤٨٣/٣

اللباس الديني، وقصره على رجال الدين، وتم الفصل الكامل بين الدولة والدين في فرنسا عام ١٩٠٥م [١]

ولهذا ظهرت المقولة الشهيرة في تلك الأثناء وهي "مات الإله " ورأت أن فكرة الإله المتخلفة ماهي إلا وسيلة من وسائل الردع بأيدي الملوك الذين أرادوا فرض هيمنتهم بانتسابهم إلى الاله[٢]

فتبين أن الثورة الفرنسية قد قامت في أوجه رجال الدين ورهبان الكنيسة من جهة، وفي وجه النظام الملكي من جهة أخرى، قامت غاضبة على كل شيء، ومن أجل كل شيء، للوصول إلى كل شيء، فأعدم الملوك، وضاعت الكنيسة، ونسي الدين، بين ركام النظريات التي بنيت على مقدمات فلسفية، ومباحث نظرية، وأصبح الشك هو المسيطر على الفرد والجماعة تجاه كل شيء.

---

١ انظر: الثورة الفرنسية، لويس عوض، ١٠٠و١٦١ وتاريخ اوربا الحديث في القرن التاسع عشر، زينب عصمت راشد، ص٢٣١ و وموسوعة اليهود واليهودية والصعيونية، عبدالوهاب المسيري، ٤٣٧/١ وعصر الثورة الفرنسية، هربرت ليفيير، ص ١٩٤-١٩٥ ومعالم تاريخ الانسانية، هـ. ج، ولز، ١٠٠/٤

٢ انظر: كارل ماركس، سربست نبي، ٦٦-٦٧

الفصل الثالث

دور قانون الإيمان المسيحي في نشأة النظريات الإلحادية الفكرية الغربية في مواجهة الديانة النصرانية

وفيه مدخل ومبحثان:

- مدخل: في بيان النظريات الإلحادية الفكرية الغربية
- المبحث الأول: أهم نظريات القرن السادس عشر والسابع عشر
- المبحث الثاني: أهم نظريات القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

مدخل
في بيان النظريات الإلحادية الفكرية الغربية

جاءت النظريات الإلحادية كرد فعل عنيف في مقاومة الكنيسة التي تسلطت بأنواع التسلط والاستبداد على رقاب أتباعها باسم الإيمان والدين، ذلك التسلط الذي نص عليه قانون الإيمان المسيحي -في نظرهم- في قوله (ونؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية)، فجاءت النظريات الإلحادية في مجملها جاحدة لدين الكنيسة، نافية رسوليتها، مدنسة لقدسيتها، ودراسة هذه النظريات هنا لها تعلق كبير بدراسة قانون الإيمان المسيحي، إذ تعد هذه النظريات هي النتيجة التي أثمرت عنها تلك السلطة الكنسية المتمثلة في الكنيسة التي اعتمدت على قانون الإيمان المسيحي، والذي نص على وجوب الإيمان بها، وهذا التهويل من شأن الكنيسة قد بذرت بذوره منذ عهد بولس الذي يقول في رسالته إلى أفسس (أيها الرجال أحبوا نسائكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها)[١] ثم حاول أن يسقي بذور السلطة الكنسية بقوله:(ليس يهودي ولا يوناني ليس عبد ولا حر ولا ذكر ولا أنثى لأنكم جميعا واحدا في المسيح يسوع)[٢] وهذا يبين باعتقادهم (عظمة محبة الرب للكنيسة عندما بذل نفسه للموت من أجلها)[٣]

وهذا الفكر البولسي أدى بعد ذلك إلى إضفاء السلطة المطلقة للكنيسة تدريجيا، مما أثمر نتيجة لذلك نشأة العلمانية[٤]، والنظريات الإلحادية في مواجة الكنيسة .

---

١ أفسس ٥/٢٥

٢ غلاطية ٣/٢٨

٣ تفسير الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى هنري، ٥/٤١٨

٤ العلمانية، كانت تطلق على كل من لم ينتسب إلى السلك الكهنوتي، ثم اطلقت على كل ما ازدرى الدين أو عارضه بشتى النظريات. انظر: معجم اللاهوت الكاثوليكي، كارل رهنر، وهربرت غريملر، ص ٢٢٢ ومقال " كلمة علمنة " لعبدالله العلايلي، مجلة افاق، عدد خاص، حزيران، ١٩٧٨م، ص ١-٢ وبين الاصالة والتقريب في الاتجاهات العلمانية، حسين سعد، ص ١١

وأصبحت دراسة هذه النظريات الغريبة من صميم دراسات اللاهوت المسيحي، واصطلح على تسمية تلك الدراسات بـ Modern th وتعني اللاهوت المعاصر، وموضوع الدراسة فيه هو (التمييز بين المواضيع الكبرى في اللاهوت، الله، المسيح، الكنيسة، الانسان، نقد الماضي، نقد اللاهوت المدرسي، نقد اللاهوت الليبرالي)[1]

وأصبحت دراسة النظريات العلمانية جزء لا يتجزأ من دراسة اللاهوت المسيحي لا سيما البروتستانتي كما يقول القس الألماني الدكتور جوتفرايد كونزلن[2]: (بالإمكان فهم العلمنة على أنها نتيجة مشروعة وضرورية من نتائج العقيدة المسيحية) كما صرح بذلك أيضا اللاهوتي الألماني "فريدريتشر غوغارتن" الذي يصف العلمنة بأنها (نتيجة اتجاهات تمثل جزءا جوهريا من العقيدة المسيحية)[3]

ويظهر أثر ذلك جليا عند النظر في أقوال فلاسفة النهضة والتنوير، حيث يشعر القاريء لأقوالهم أن نظرياتهم الفلسفية في حقيقتها فرار من سلطة الدين وسلطان سلاطينها، ويدلل على ذلك ما قاله الفيلسوف سبينوزا[4] حيث يقول:(لقد دهشت مرارا من رؤية أناس يفتخرون بإيمانهم بالدين المسيحي، أي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والاخلاص لجميع الناس، ويتنازعون مع ذلك بخبث شديد ويظهرون أشد انواع الحقد .... ولقد بحثت عن سبب هذا الشر ووجدته دون عناء في النظر إلى مهام تنظيم الكنيسة ... ومنذ أن شاع هذا الفساد داخل الكنيسة فقد استحوذت رغبة جارفة في دخول الكهنوت على قلوب أكثر الناس شرا وانقلب الحماس لنشر الدين إلى شهوة وطموح مزر ...) [5]

---

١ المدخل الى اللاهوت، نقله إلى العربية، الاب حبيب هرمز النوفلي، المدخل ص ١٢ و اللاهوت المعاصر، الاب منصور المخلصي ، ص ٢٢

٢ وهو استاذ في اللاهوت الانجيلي والاخلاقيات الاجتماعية، جامعة القوات المسلحة بألمانيا، ميونخ . انظر: انظر كتابه: تعليق المترجم، ص ٢٢

٣ مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا، جنفرياد كونزلن، ص٢٣

٤ وسيأتي الحديث عن نظرية سيبينوزا .

٥ رسالة في اللاهوت والسياسة، سبينوزا، ص ١١٥

وأول ما يبرز عند دراسة مضادة اللاهوت المسيحي المعاصر هو دراسة النظريات الطارئة التي واجهت اللاهوت المسيحي التقليدي برمته، ويمكن أن تبرز أهم النواحي المتعلقة بهذه النظريات في النقاط التالية:

أولا: تعريف النظريات:

يعرف علماء الاجتماع النظريات بأنها: مجموعة من القواعد أو الفروض أو المفاهيم، التي يمكن تطبيقها على عدد من الظواهر المتصلة، ولها القدرة على الوصف والتفسير والاستبصار[1].

وهي تصنف على ثلاثة أنواع، النظريات الوصفية، والنظريات التفسيرية، والنظريات الاجتماعية التقويمية .[2]

ولعل النظريات الوصفية والتفسيرية هي الأنسب لوصف ما يتعلق بآراء المفكرين والفلاسفة الذين اخترعوا النظريات الإلحادية في مواجهة قانون الإيمان المسيحي، بل الدين برمته، من ثم تفسيرها وتحليلها بما يتوافق مع توجه قائليها .

ثانيا: بداياتها:

يرجع بعض الباحثين في التاريخ الديني قيام الثورات العقلية ضد المقدسات الغيبية المسيحية قبل عصر التنوير بقرون، إذ يعتقد البعض أنها قد بدأت بذرتها منذ العصور الوسطى كما يستنتج ذلك من أقوال بعض فلاسفة العصور الوسطى حينما يقولون: (إن الوحي صنم أنفه من شمع، وينثني وفقا لمشيئة العالم)[3] ولهذا تباينت أفهام فلاسفة المسيحية في موقفهم من الوحي في العصور الوسطى ويمكن أن نقول:إن فلاسفة المسيحية في العصور الوسطى تتمثل مواقفهم من الوحي فيما يلي:

---

١ انظر: تلخيص لبعض فصول كتاب نظريات علم الاجتماع، د / عبدالعزيز علي الغريب، اعداد، مساعد ابراهيم الطيار، WWWPDFFACTORY.COM

٢ يمكن الرجوع إلى تعريف هذه النظريات إلى نفس المراجع السابقة .

٣ وذلك مثل الفيلسوف ديليل، انظر: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى ص ١٠٩

١-موقف من يرى أن في الوحي غنية عن أي مصدر سواه، لأن الحق محصور فيه، ومن ثم فما سواه باطل مرفوض.

٢-وموقف من يرى أن العقل وسيلة لفهم الوحي، وأن هذا الأخير هو السلطان المتبع، فعلى الأول أن يكون مؤيد أَو خادماً له.[١]

٣-وموقف من يرى أن العقل والوحي مصدران للمعرفة: وهؤلاء على قسمين:

أ- فبعضهم يرى أن لكل منهما مجالاً خاصاً يقدم المعرفة فيه دون الآخر، للعقل الحقائق العقلية، وللوحي مافوق الطبيعة .

ب- وآخرون يرون أن العقل أوثق من النقل، فإن اتفقا فذاك، وإلا فإن المقدم هو العقل.

٤-وموقف من لا يرى للوحي أي قيمة علمية في مقابل البراهين الفلسفية أو التجربة، أوهما معًا[٢] .

ولهذا يظهر أن المناهج العقلية أو التجريبية أو الوضعية التي ظهرت في عصر التنوير هي نتيجة اختمار تلك الأفكار التي طفت على سطح المسيحية حتى في أثناء صولة الكنيسة لدى الفلاسفة المنتمين إلى المسيحية في العصور الوسطى .

فقد بدأت النظريات النقدية التاريخية والعقائدية في عصر النهضة والتنوير – وهو ما نعنى به هنا – لبعض مفاهيم الكتاب المقدس، بداية خجولة، يشوبها الترقب والحذر، من بطش الكنيسة، وسطوة رجالها، ولهذا يرى بعض الباحثين أن طريقة التفكير والبحث، في القرن السابع عشر هي نفسها طريقة المفكرين والمنتمين إلى الروح الدينية الأوائل [٣].

---

١ ومن أبرز أصحاب هذا الصنف الفيلسوف الشهير هيجل، الذي يرى التمييز بين الدين العقلي وبين الدين الوضعي، ويرى أن الدين من شأن القلب لاتكون خاضعة للاستدلال النظري انظر: مقدمة حياة يسوع، هيجل، ص ٢٥

٢ انظر: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي للزنيدي ص ٤٨٥ وأنسنه الوحي، ص ٤٠٠

٣ انظر: المشكلة الأخلاقية والفلسفة الدينية، اندرية كريسون،ص ١٥٩

غير أننا إذا نظرنا في واقع العملية النقدية للمفاهيم التاريخية والدينية في عصر النهضة نرى أن تلك المناهج قد نمت عن طريق التدرج، فقد تدرجت طريقة المفكرين والباحثين من الفلاسفة من الانتماء للروح الدينية، إلى العداء لكل ما يمت للدين، وكانت تلك الأفكار النقدية تتلاحق وتنتشر انتشار النار في الهشيم، بين رجال الفكر ورواد الثقافة، رغم مجابهة الكنيسة لها، فظهرت كثير من الدراسات النقدية لمفاهيم الكتاب المقدس، بل وعقائده، والتي تترست باسم النقد التاريخي للكتب المقدسة.

فقد كان المنهج الديني السائد في عصر سطوة الكنيسة ورجالها هوالمنهج القائل بأن الكتاب المقدس مصدر موسوم بالعصمة من الزلل والخطأ، ولا يعتريه النقص، وأن كتب العهدين قد أوحي بهما رأسا من قبل الله، وحفظها بحرصه الخصوصي، وبمناسبتها لكل العصور، وهي سليمة من التحريف، ولها العصمة التامة، وأن كتّاب الكتاب المقدس أناس معصومون، يوجههم روح القدس،[1] وأن فيه كل ما يختص بالإيمان والحياة الروحية[2] وأن قوله هو المعتمد عند تعارضه مع العقل، وأن سلطة الكتاب المقدس -كما يقول القديس اوغسطين-: (أكبر من جميع قوى العقل الإنساني فحيث يقع التناقض بين الملاحظة العلمية وهذا الكتاب تهمل الملاحظة العلمية)[3]

ولا يزال بعضهم إلى اليوم يرى أن الكتاب المقدس هو (الحقيقة العلمية) وأنه (فريد لا نظير له) وأنه (حق اصيل)[4]

---

(١) انظر: علم اللاهوت النظامي ص ٩٤.

(٢) انظر: قاموس الكتاب المقدس ص ٧٦٢.

٣ تكوين العقل الحديث، جورج راندال، ترجمة: جرج طعه، دار الثقافة،بيروت، ١٩٨٥م ١٥٧/١

٤ بحثك عن الله، د/ريتشارد .أ.بنيت، ط٢، ١٩٩٧م، ص ١٤-١٥

ولكن هذا الاعتقاد قد تغير تغيرا جذريا لدى البعض بعد ثورة المذاهب النقدية الفلسفية، فأصبح بعض المثقفين وعلماء اللاهوت النصارى، يرى بأن العقل البشري ظاهر في نصوصه بوضوح، وخصوصا في سبك المواد التاريخية التي تملأ جزءا كبيرا منه [1].

ثم سرى ذلك على جميع العقائد التي لم تكن في نظر فلاسفة عصر النهضة والتنوير إلا خرافات وأساطير، أرادت الكنيسة من خلالها الهيمنة على الناس -كما سيأتي - .

وبعد استقراء تلك النظريات الفلسفية التي كان همها الأول هو كيفية التخلص من سطوة الكنيسة، ثم أصبح شغلها الشاغل هو كيفية القضاء على الكنيسة ودينها، ندرك أن التدرج الفعلي لتلك النظريات قد ابتدأ منذ القرن الخامس عشر، حيث كان القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد هو عصر بذرة التمرد على الدين والكنيسة باسم العقل، ولكن تلك البذرة لم تكن صلبة العود، قوية العماد، ولذا فقد سير الإيمان العقل في ركابه، بعد أن سيطر على كل شيء آنذاك، وحالات الهرطقة والكفر فيه نادرة على أنه وجد ثلة من الشكاكين، غير أنهم قوبلوا بالإبادة من قبل الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية[2]

وقد حاول بعض الباحثين الأوربيين ان يوجز ما مرت عليه مجتمعات أوربا منذ بداياتها وحتى هذه الثورات الإلحادية والتي أسهمت بشكل عام في تشكيل لفكر الأوربي معتمدا الترتيب التالي:

١-ابتكار الإغريق لكل من المدنية والحرية في ظل القانون والمعرفة والمدرسة .

٢-ابتكار روما لكل من القانون والملكية الخاصة والفرد .

٣-الثورة الاخلاقية والاخروية التي اتى بها الكتاب المقدس المسيحي والمتمثلة في البر والإحسان المتجاوزين للعدل .

---

(١) انظر: علم اللاهوت النظامي ص ١٠١.ومقدمة الطبعة الرهبانية اليسوعية المقتبسة من مقدمة الطبعة المسكونية الفرنسية للكتاب المقدس ص ٨

٢ انظر: كارل ماركس، مسالة الدين،سربست نبي، ص ٤١ قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ٩٥

٤-الثورة البابوية والتي اختارت العقل البشري المتجلي في وجهين احدهما المعرفة الإغريقية وثانيهما القانون الروماني بغية إدراج الأخلاقيات والاخرويات التوراتية في التاريخ محققة بذلك أول توليفة حقيقية بين اثينا وروما والقدس .

٥-الاعلاء من شان الديمقراطية الليبرالية وتشجيعها وهي التي انجزت بفضل ما اتفق على تسميته بالثورات الديمقراطية الكبرى [١]

بينما يرى بعض الباحثيين الأوربيين أيضا كاوجست كونت أن المجتمع في حالته الديناميكية التي تنتقل من حال إلى حال قد مر بثلاث مراحل وهي :

١-المرحلة اللاهوتية (Theological Stage) والتي فسرت الأحداث فيها باسم الإله.

٢-المرحلة الميتافيزيقية وفيها فسر الإنسان الأحداث باسم (عناصر خارجية) لا يعلمها ولكنه لايذكر اسم الإله.

٣-المرحلة الوضعية (Positive Stage) التي أخذ الإنسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة يمكن إدراكها بالمطالعة أو بالمشاهدة العلمية.

وحقيقة تقسيم أوجست كونت لتلك الأدوار ترجع إلى تأثير قوى بشرية عليها، بعيدة عن القوى الإلهية، فالدور اللاهوتي يرجعه إلى تأثير قوى شخصية، مثل سلطة الأفكار الدينية ورجال الكنيسة، وأما الدور الميتافيزيقي فيرجعه إلى تفسير الظواهر إلى معاني مجردة أو خيالية، وأما الدور الوضعي فيرى أنه لابد من استخدام العقل والمنطق في التفكير[٢]

ويقسم بعض الملاحدة حياة البشر الدينية والاجتماعية قد مرت بثلاث مراحل رئيسية وهي:

١-مرحلة السحر والخرافة

---

١ انظر -philippe nemo GO.EST –CE que I,occident? Puf,paris .٢٠٠٤,p٧

٨فيليب نومو ماهية الغرب. نقلا عن تاريخ اورربا وبناء اسطورة الغرب ص ٤٥

٢ انظر: تلخيص لبعض فصول كتاب نظريات علم الاجتماع، د / عبدالعزيز علي الغريب، اعداد، مساعد ابراهيم الطيار، WWWPDFFACTORY.COM والإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة: ظفرالدين خان، مراجعة وتقديم: د. عبدالصبورشاهين،ص ٢٦

٢- مرحلة الدين

٣- مرحلة العلم

ففي المرحلة الاولى كان الفكر البشري يعيش ادنى اطواره وأحطها وكان الإنسان يرى أن حياته مرتبطة بأسباب خفية لا يستطيع إدراكها فجا الى السحر والشعوذة والكهانة لدفع الارواح الشريرة التي تسبب له الضرر فكان السحرة يعيشون في أرقى المكانان الاجتماعية ورؤساء للمعابد والهياكل بل كان بعضهم ملوكا يتوارثون الحكم

وفي المرحلة الثانية انتقل فيها الإنسان إلى الدين وبقيت رواسب موروثة عن المرحلة الالى من أبرزها طبقة رجال الدين الذين ظلوا يقومون بمهمة السحرة و كان يفرق بينهم وبين السحرة ان السحرة كانوا يستمدون من السحر بينما هؤلاء يستمدون علومهم من الدين

إلى أن جاءت مرحلة العلم أو ما يسمى بعصر التنوير وهو المرحلة الثالثة [١]

ولا شك أن هذا التقسيمات قاصرة خاطئة حيث أغفل الوحي الإلهي وأسبقية التوحيد على الشرك وجعل الدين امتداد للسحر وهذا كله من الخطأ فلا تعدو أن تكون نظرة صاحب هذا التقسيم إلا إلى الجوانب المظلمة في حياة البشرية والزايا المنحرفة في تاريخها .

ثالثا: سبب نشأتها:

بعد أن تقوت تلك النظريات الإلحادية، وتخلت عن خجلها، ودعت إلى الإيمان بوحيها، وأصبح لها مدافعون ومحامون، تخلت تلك النظريات الإلحادية عن مظهرها، ففسخت مظهر الحمل الوديع ولبست لباس المارد الجبار، فأصبحت كالصاعقة الهوجاء، التي أرادات أن تدمر كل شيء، من أجل كل شيء، ولأجل كل شيء، فلم تعد مقتنعة بالدين ولا بالسياسة ولا بالاقتصاد ولا بالكنيسة ولا بالقوانين ولا بالأنظمة ولا حتى بوجود خالق عظيم، ولذا يصرح أحد أقطاب الفكر الاقتصادي الحديث: (بأن كل حكومة و قانون، شر من حيث المبدأ، وذلك إلى المدى الذي يقيد أو يشوه فيه التطور الطبيعي للاقتصاد والمجتمع)[٢]

---

١ انظر: العقلية البدائية، ليفي بريل ص .

٢ فكرة القانون، ص ١٩

ويمكن أن ترجع أهم الأسباب العتي أدت إلى نشأة النظريات الإلحادية إلى ما يلي:

السبب الأول: يمكن أن يعد السبب الرئيس لتلك الثورة على القيم والنظم والدين هو ما اجترحته الكنيسة ورجالها على العالم المسيحي، لقد كانت الكنيسة قبل ذلك، جاثمة بكل قوتها على رقاب أتباعها، مشرعنة وملزمة لأتباعها بضرورة تعلم (المعرفة المقدسة)، في كل ما يختص شؤون الحياة، وحتى بعد الموت، وذلك على مدى قرون طويلة، بشراسة منقطعة النظير، إلى إن وجهت إليها ثقافة النهضة نقدها الرئيس واستعاضت عنها بأشكال وطرائق جديدة في التفكير[1].

ولهذا يرى كثير من الباحثين أن كل النظريات الإلحادية ماهي إلا ردة فعل عنيفة تجاه ما يتعلق بقانون الإيمان المسيحي التي اخترعته الكنيسة وتبنته[2]

وهذا يظهر جليا في تعريف كثير من العاماء الغربيين للعلمانية حيث يعرفونها على أنها: (تراجع للسلطة المسيحية ولا سيما بشكلها المماس المتعلق بالطوائف المسيحية)[3]

السبب الثاني: يمكن أن يعد السبب الثاني هو بمثابة النتيجة الحتمية للسب الأول، وذلك بعد أن فقدوا الثقة بالكنيسة وتعاليمها، رأوا لزوم الاستعاضة عن تعاليم الكنيسة بتعاليم أخرى، تكون مبنية على أسس متينة، ترقى إلى الوثوق بها، من هنا نشأ العلم الحديث الذي يقصد به السيطرة على الطبيعة، وفك طلاسمها والاستفادة منها، دون النظر إلى ما يجب أو ما لا يجب أن يكون، وأصبح معنى الله ومعنى الحياة وقضية الخير والشر والحلال والحرام خارجة عن نطاق أهدافه، تنصب اهتماماته فقط على الطبيعة وعناصرها، بواسطة عقل شاك مدقق، يحدوه نهم غير محدود لفهم هذا الكون الذي نعيش فيه وتسخيره لخدمة بني البشر[4] وغدا جليا في نظر المفكرين أن العمليات الطبيعية يجب أن تعلل بالقوانين الطبيعية،

---

١ انظر: كارل ماركس، مسالة الدين، سربست نبي، ص ٤٦

٢ انظر: الإسلام والفكر المادي، د أحمد الشاعر ص١٧ والفكر المادي الحديث وموقف السلام منه د/ محمود عتمان، ص ٤٧ وأثر الكنيسة على الفكر الاوربي أيمن عجيبة ص ١١٩

٣ مأزق المسيحية والعلمية في أوربا، جنفرياد كونزلن، ص ٢٢

٤ انظر: تكوين العقل الحديث، جون هرمان راندال، ترجمة د/جورج طعمة، ص ١٦٠-١٦١

وأن يعبر عنها بحدود كمية، وظهر أن مفتاح فهم الطبيعة يوجد في تطبيق الرياضيات، وفي مناهج قياس دقيقة[1]

وأصبحت الحياة الجديدة في نظر التنويريين والفلاسفة تعبر عن نفسها في نظريات وآراء (راحت تجدف في السماء منتهكة ستار لاهوته المقدس وما شابهه من كآبات ميتافيزيقية ومن هذا الموقع جنحت إلى التنبؤ عن قدوم مجتمع إنساني منفصل عن الدين يقوم على حشد من المستنيرين والهرطقة الأخلاقيين الجدد)[2]

ولذا فان ذلك العصر يعد –كما يقول بعض المؤرخين – هو عصر صراع ديني وكانت الوحدة العقائدية في أوربا الغربية قد اختفت وكان كل أمريء مفكر يعي هذا التغير[3]

السبب الثالث: يعود الفضل فيه إلى ما مني به النصارى في أوربا من عزلة تامة، كانت تعيش فيه في سبات عميق، وضلال وجهل رهيب، وكانت الكنيسة الموجودة تمارس ضغطاً وتعذيباً وقتلاً للعلماء، وتحريقاً لهم، ومصادرة للفكر والحريات بدرجة لم تعهد البشرية لها مثيلاً، وكانت الشعوب تضيق بهذا القهر والتسلط عليها [4]

السبب الرابع: هو ما ظهر وشاع من الانحطاط والفساد الذي عم بين رجال الاكليروس بل بين باباوات الكنيسة –كما يقول الكاتب المسيحي جاد المنفلوطي – ومن هامة الرأس إلى أخمص القدم أصبحت الكنيسة مريضة مضروبة بضربة طرية موسومة بسمة الانحطاط الخلقي لا فرق بين قائد ومقود كلهم في الغي سواء[5]

١ انظر: عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ٩

٢ كارل ماركس، مسالة الدين، سربست نبي، ص ٥٩ ونشأة التحررية الأوربية، هارولد لاسكي ص ٥

٣ انظر: عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ٩

٤ انظر: ص من هذا البحث

٥ انظر: تاريخ المسيحية – المسيحية في العصور الوسطى –، جاد المنفلوطي، ص ٣٦ تاريخ الكنيسة، جون لومير، ترجمة عزرا مرجان ٣٧/٤ والاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية، انجلس، ص

ولفضل هذه الأسباب مجتمعة انتفض العالم المسيحي على مفكريه ونفض أثواب الذل والهوان وهرب من الدين هروبا لا يلوي معه على شي واستعاض عن جحيم الدين بلهيب النظريات الإلحادية التي تعددت طرقها وأساليبها، ويظهر ذلك فيما يلي:

رابعا: طرقها:

لقد انطلق رواد الفكر عندما تحرروا من الكنيسة في كل اتجاه، فكانوا كالعمي في معمعة الظلام، فتخبطوا في ذلك أشد التخبط، ويمكن ذكر أهم طرقهم في عرض النظريات الإلحادية التي رأوا من خلالها التحرر من ربقة الدين فيما يلي:

الطريقة الأولى: الرجوع إلى المذاهب الفلسفية القديمة:

حيث رجع كثير من مثقفي عصر النهضة والتنوير الغربيين إلى عهود اليونان، فاستقوا كثيرا من أفكارهم التي اقتبسوها لتحل محل الدين والكنيسة، مسترشدين بها في إخضاع الدين والدنيا لصالح هذا الإنسان الجديد، فمنهم من رجع إلى الفلسفة الرواقية[١] التي لا تؤمن إلا بالمادة والماديات وأرجعوا كل شيء إلى المادة [٢]

ومنهم من رجع إلى الفلسفة الافلاطونية والارسطية ، وأطلقوا على تلك الآداب بـ "الإنسانيات " وهذه ما تعرف بالنزعة الإنسانية التي تهدف إلى الإعلاء من شان الفكر الإنساني ورد القيم إلى عقل الإنسان لا إلى الدين [٣] وقد سار بعضهم على نفس طريقة الجدل العقلية كهيجل الذي تبع منهج الجدل الارسطي والافلاطوني[٤] أو الطريقة السقراطية في التيقن من صحة الأشياء وهي التي تعتبر العقل هو المثل الأعلى [٥]

---

١ وهي فلسفة نشأت على يد الفليلسوف زينون في اوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، انظر: الفلسفة الرواقية ، عثمان أمين ، ص٢٣

٢ انظر: خريف الفكر اليوناني ، ص٢٨

٣ انظر: العرب والعلم في عصر الاسلام الذهبي ودراسات علمية اخرى، توفيق الطويل، ص ٢٧٠ وتاريخ الكنيسة٤/٧٠

٤ انظر: الموسوعة الفلسفية، ص ١٢٥

٥ انظر: الموسوعة الفلسفية، ص ١٩٠

ويبدوا أن أول وأبرز من رسم الاتجاه الفلسفي في الكنيسة هو الأب توما الاكويني الذي يعد المعلم الملكي في الكنيسة البابوية حيث يقول في كتابه الخلاصة اللاهوتية: (يظهر أنه لا تمس أي حاجة إلى تعليم غير التعاليم الفلسفية إذ ليس ينبغي للإنسان أن يحاول إدراك ما فوق العقل ... والتعاليم الفلسفية متكفلة بجميع ما تحت العقل فإذا يظهر أن لا فائدة في تعليم غير التعاليم الفلسفية ...والتعاليم الفلسفية تبحث عن جميع الموجودات حتى الله)[1]

بل إن توما الاكويني يغضي من شأن العقائد المقدسة ويعلي من شأن تعاليم الفلسفة فيقول:(يظهر أن التعليم المقدس ليس علما، لأن كل علم فمبناه على مباديء بينة بنفسها والتعاليم المقدسة مبنية على عقائد ليست بينة بنفسها، بدليل عدم الإجماع عليها)[2]

ثم يصرح بذلك فيقول: (يظهر أن التعليم المقدس ليس أشرف من سائر العلوم)[3]

ثم جاء فلاسفة عصر النهضة والتنوير الذين نحى بعضهم منحى الاب توما الاكويني، ورأوا أن اللفلسفة هي الطريقة المثلى في ذلك، ويخص منهم من تربى في الكليات التي كانت تدرس علوم اليونان التي آنذاك ككلية ساكس وفيرتمبرغ وغيرهما والتي كانت (تجري فيها دراسات متتابعة للغة اليونانية)، وكانت الفكرة الوحيدة لدى بعضهم عن اليونان (أنهم شعب بطولي وخالد الشباب وأنهم الشعب الوحيد الذي عرف كيف ينمي سائر ملكاته الخلقية والجسدية بطريقة منسجمة والشعب الوحيد الذي عرف كيف يخلق حياة جميلة حقا)[4] فبعضهم قد أبدى رأيه في المسيحية من خلال الفكرة التي كونها عن اليونان وفي نهاية

١ الخلاصة اللاهوتية للاب توما الاكويني ص ١٠

٢ نفس الموجع ص ١٢

٣ نفس الموجع ص ١٥

٤ مقدمة حياة يسوع، هيجل، ترجمة جرجي يعقوب، ص ١٦

المطاف فان اليونان القديمة التي اوحت اليه بالرغبة في مستقبل افضل لشعبه وبفكرة "الديانة الشعبية"[1]

وكان من أبرزهم فرنسيس بيكون، الذي اتخذ من ذلك معيارا لصحة المفاهيم ومبدا لكل يقين[2] وكذلك ديكارت وكانت الذي يعترف بانه استمد بعض أفكاره من أرسطو وأبيقور كما في كتابه "مقال عن المنهج" وكتابه "المبادئ" [3]

---

١ انظر: نفس المرجع ص ١٧ ولهذا يقول هيغل:(العقل الخالص المتجاوز كل حد هو الالوهة بذاتها فتصميم العالم قد انتظم اساسا بحسب هذا العقل وهو الذي يدرب الانسان على معرفة مصيره والهدف المطلق لحياته) حياة يسوع، هيجل، ص ٤٧

ومن العجيب ان هيغل يرى ان عصر الثورة الفلسفية الالحادية الحديثة هو عصر اكتشاف اسرار الديانات السماوية ولذا يرى ان (مانعده اليوم هي حقائق راسخة تعود كليتها للانسان ..فيما كنت تعد اسرارا سماوية في سابق عهدها وقد فصلت الان على مقياس الاعتراف بجدارة العقل الانساني وصلاحية غاياته العقلانية واهدافه على ارض الحاضر)١ كارل ماركس، مسالة الدين، ص ٤٣

ويبدوا ان هيغل نسي او تناسى ان كل ما قاله في فلسفته قد قيل قبل ظهور الديانات السماوية التي يسميها بالاسرار السماوية، وهذا قول متناقض والا فكيف يمكن ان يكون المتقدم مفسرا وشارحا لمبهم قول المتاخر، وكيف تكون الفلسفة المتقدمة مفصلة وشارحة لاقوال الديانات المتاخرة عنها . الا ان كان يعتقد بالاسرار السماوية ديانات الاسرار اليونانية، – ويبدوا تاثره بها من خلال لفظه بها –، فهذا يعد قولا ليس بذي بال، لان ديانات الاسرار قد اندثرت منذ زمن بعيد واندثر معتنقوها، فليس لقوله معنى في الرد على اعتقاداتهم في عصر التنوير والنهضة الاوربية .– وهو بلا شك لا يعني هذا – .

٢ انظر: كارل ماركس، المسالة الدينية، سربست نبي، ص ٦٠

٣ انظر: المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، اندريه كريسون، ص ٢٠٩ وتكوين العقل الحديث، جون هرمان راندال، ١/١٨٥و١٨٧ ويأتي الحديث عن نظريات ديكارت وكانت .

ومن منهم كذلك هيجل ونيتشة ورسل وريناان وكومبرز وبيرنت وغيرهم[1]وكذلك الفيلسوف الألماني اديموند هوسرل الذي دعا إلى مثالية بشرية العهد القديم أي العصر اليوناني[2]

وكذلك سيبينوزا الذي ابتدأ كتابه في اللاهوت والسياسة بقوله: (وفيها تتم البرهنة على أن حرية التفلسف لا تمثل خطرا على التقوى أو سلامة الدولة بل إن في القضاء عليها قضاء على سلامة الدولة وعلى التقوى ذاتها في آن واحد)[3]

وقد تأثر بهذا الاتجاه كثير من اللاهوتيين والمثقفين الغربيين حيث يرى كثير منهم أن التلازم بين الدين والفلسفة هو تلازم أبدي، لا ينفصم أو ينقسم[4]، ودليلهم على ذلك، هو أنه عندما يقوم –في نظرهم – (معتقد ديني وتثبت جذوره ويغدو غير قابل للتحدي بوجه عام، توضع حدود ضيقة للبحث الحر، وهي الفلسفة، وحيثما يوجد عدم الاستقرار، أو الصراع في المعتقد الديني والأخلاقي، في حين أن المسائل الفلسفية تطرح نفسها بإلحاح خاص، وتكون عرضة للبحث الحر)[5] أي أن المسائل الدينية لا يجوز فيها البحث الحر أي النقد والتفنيد في حين أن المسائل الفلسفية يجوز فيها كل ذلك[6]

---

١ الفسفة الاغريقية، محمد جديدي ص ١٩ وبدايات التفلسف الانساني،الفسفة ظهرت في الشرق، د/ مهدي فضل الله، ص ٣٧-٣٨

٢ انظر: صيدلية هوسرل، مقدمة في النقد الوحيوي في الفلسفة الفنومينولوجية، رواء محمود حسين، ص ١٢ والعروة الوثقى :مدخل إلى علم الحكمة الإسلامية" ،رواء محمود حسين، ط، دار ناشريلم نشرالاليكتروني،الكويت و مسعى البشرية الأزلي :الله لماذا؟ كارن أرمسترونج" ،ترجمة د/ فاطمةنصر،ود .بة محمدعارف ، ط١ ، البيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ٢٠١٢م ،ص١١

٣ رسالة في اللاهوت والسياسة، سبينوزا، ص ١٠٧

٤ انظر: المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، اندريه كريسون، ص ٢٠٨

٥ عصر العقل، فلاسفة اقرن السابع عشر، ستيوارت هامبشر، ترجمة ناظم الطحان، ص٨ نقلا عن كارل ماركس، ص ٤٢

٦ رغم أن أول من كذب ذاك هم نفس الفلاسفة، فقد اتخذوا مباديء اعتقدوا أنها يقينية لا يتطرق إليها الشك ثم بنوا عليها نتائج .

ويصرح البعض منهم بمتانة (علاقة الفلسفة بعلم اللاهوت وان غايتهما واحدة وهي معرفة ما يختص بالخالق والمخلوق وعلاقتهما معا)[1]

ومن هذا خلال المفهوم تصور البعض أن الفلسفة هي تطوير للدين وسد للثغرات المشرعة فيه[2]

فعصر النهضة في أوربا لم يكن الإعلان عن انتمائه إلى الإغريق والرومان محض مصادفة، أو محض تعلّقٍ بآداب وفلسفات وثقافة مجردة، وإنما كان، وفي الصميم، إعلاناً عن الانتماء إلى أساس نظام القيم في ذلك العصر: "امتلاك الثروة" وفق المبدأ المشهور (الغاية تبرر الوسيلة)[3]

فهذه الطريقة أعني بها طريقة الرجوع إلى المباديء الفلسفية هي الطريقة الأولى التي عرضها كثير من المثقفين الغربيين في عرضهم للنظريات الإلحادية، غير أن فلاسفة الاغريق أكثر دقة وحصافة من فلاسفة التنوير في سلوك هذا الاتجاه[4]

---

١ كارل ماركس، مسالة الدين، سربست نبي، ص ٤٢ و علم اللاهوت النظامي، القس جمس انس، ص

٢ غير إن هذا القول ينطوي على خلل شنيع، إذ إن الفسفة الحديثة لم تطور الديني المسيحي بل نفته بالكلية واعترضت على كل تعاليمه وشرائعه، هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فان قياس فلسفة الاغريق وفلاسفته بالدين المسيحي قياس باطل وحكم غير عادل اذ كيف يقاس دين مثبت العقائد والقواعد – بغض النظر عن صحتها – بعصر الاغريق الذي تتقاذه الاساطير والخرافات، والاتجاهات العقلية والترهات، ومن هنا يعلم مقدار التخلف والرجعية الذي منيت به امم اوربا وتبعهم على ذلك من تبعه باعتمادهم في عصر التنوير والنهضة على الفسفة الاغريقية التي اقتبست كل جذورها وقولبت في قالب عصري حديث يوافق عقول عصر النهضة والتنوير . فاعتمادها ايمان بصدقها واحقيتها إن تقوم بدلا من الدين المسيحي .

٣ رقصة الشيطان، برنامج العمل الصهيوني لنصف القرن المقبل، دراسة ١٩٩٤–١٩٩٥م من منشورات اتحاد الكتاب العرب ص ٢٢

٤ وذلك لأن جملة من فلاسفة الاغريق توصلوا إلى وجود محرك أول أزلي لهذا العالم . انظر: الموسوعة الفلسفية، ص ٣٧

=

ولكن الملفت للنظر، هو أنه لما كان من شأن الباطل أن لا يقف عن حد، أصبحت المقدسات الفلسفية بالأمس ممقوتة مبعدة اليوم، فقد تغيرت مفاهيم كثير من المفكرين الغربيين في نظرتهم للفلسفة فأصبح المنهج الفلسفي الأرسطي القائم على الجدل الاقصائي القائم على القياس، والذي يستنتج من الحقائق المعروفة، أكثر من البحث عن حقائق جديدة[1] يتعرض لانهيار عنيف أمام الفكر التنويري الغربي، فأصبح يرى كثير منهم أن التقدم العلمي قائم على نظريات جديدة لم يعهد بمثلها، بل يرون انه تخلى عن كل فلسفات العصور الماضية كما يقول – ستيوارت هامبشر – حيث يرى أن عصور النهضة لم تعد تحفل بفلسفة اليونان فقد أصبحت (تتمتع بشيء من الوحدة فهي تشهد ظهور العلوم الطبيعية واستمرار أفول التصورات القروسطية عن المعرفة القائمة على مناهج ارسطو أفولا كاد أن يكون نهائيا فقد أكد العقل البشري تحرره من سلطة المناهج المدرسية في التفكير... وتؤلف حاجزا بيننا وبينهم فنواميس صلتهم بالموضوع واستنادهم الدائم إلى سلطة اليونان والرومان القدامى ليس أمرا طبيعيا بالنسبة لنا)[2] وهذا الاتجاه هو ما يعرف بالعقلانية، وهي الطريقة الثانية لفلاسفة النهضة والتنوير، ويتضح فيما يلي:

الطريقة الثانية: العقلانية:

نحا جملة من فلاسفة عصر التنوير إلى الاعتقاد بإله جديد ورب أعظم يفوق كل الآلهة السابقة في نظرهم وهو العقل، فأصبحت العقلانية — في نظرهم —هي (اتجاه تنويري يثقف الإنسان ويرفع الوصاية الملقاة عليه لأنه يملك العقل وأيضا الحواس ويملك الوسائل التي تمكنه من إدراك الحقيقة واكتساب المعرفة ولا حاجة إلى سلطة تفرض عليه لكي تدله على

= وهذا بخلاف ما ذهب إليه اكثر فلاسفة النهضة والتنوير من غنكار وجود الله، ورفض جميع الاديان كما سيتضح في المباحث التاليه . .

١ انظر: نشأة التحررية الاوربية، هارولد لاسكي، ص ٥٣

٢ عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص٧ وانظر: تكوين العقل الحديث، جون هرمان راندال، ٣٣٢/١ وفلسفة الحضارة، اتلبرن شيفتز، ترجمة عبدالرحمن بدوي، ص ١٨٠ والصؤاع بيت التيارين الديني والعلمي، د/ محمد كامل، ص ٢٤

الحقيقة)[1] ومن هؤلاء من رأى عدم إقصاء الدين بالكلية ولكن بشرط أن تخضع الأسس الدينية لنتائج العقل ونتائج النقد التاريخي وأن يواكب الدين الحقائق العقلية[2]

ومن الغريب، أن بعض أولئك نازعتهم الفطرة في تأليه العقل، فأثبتوا وجود إله أسمى لكنه لا يخرج عن أنه أكبر العقول، ويصرحون بأنه يمكنهم القول (بأن الله من جهة أنه عقل هو مصدر جميع الموجودات .. والعقول وحدها قد خلقت على صورته بل كادت أن تكون من سلالته أو قل أنها أولاد البيت الواحد)[3] ولهذا يصرحون بأن الله (هو الحاكم الأكبر لجمهورية مكونة من جميع العقول وأن سعادة هذه المدينة هي مطلبه الأساسي)[4] وأنه هو أعظم العقول[5]، فأصبح العقل -في منظورهم - هو الذي يسوق الناس إلى فهم الطبيعة وبفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقاً لها وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل الأفكار المسيحية التقليدية الخاطئة" [6]

الطريقة الثالثة: تحوير علم الاجتماع:

إلى جانب تقديس الفلسفة والعقل وتقديس الطبيعة، ظهرت ثالثة الأثافي، التي أكلمت ثالوث الإلحاد الجديد في غرسه في قلوب المجتمعات، وهو تحوير علم الاجتماع الذي يبحث في النظام الاجتماعي للسلوك الإنساني[7] ، إلى جانب التوسع في دراسات الأديان المختلفة وظهور الفسفات الحديثة[8].

---

١ فلسفة العلم في القرن العشرين، د/يمنى طريف الخولي، ص ١٢

٢ انظر: تكوين العقل الحديث ، جورج تيريل ، ٢٣٤/٢

٣ مقالة في الميتافيزيقيا، لايبنتز، ص ٢٠٢

٤ نفس المرجع والصفحة

٥ نفس المرجع ص ٢٠١

٦ أفكار ورجال: ٤٧٤، ٤٧٦

٧ انظر: دراسة التاريخ، وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، هيوغ اتكن، ص ٣٤

٨ انظر: تكوين العقل الحديث ، جون راندال ، ٢٢٠/٢و٢٤٠

فنتج هذا عن مخاض تضارب الآراء والصراع الكبير بين تيارات فلسفية كبرى إلى جانب انهيار النظام الاجتماعي القديم وصعود أنظمة اقتصادية جديدة[1] غير أن المعني هنا في علم الاجتماع المتعدد الأوجه في دراساتي العلمية هو ما يتعلق بالجانب الديني فقط.

فظهرت ما يسمى بالعلوم الاجتماعية والإنسانية مع أنه لم يكن هناك أسلوب واحد للتعبير عن هذه الحركة لدى مفكريها لكن اهتماماتهم حول حرية الإنسان واحدة [2]

وهذه العلوم الاجتماعية يرى كثير من العلماء الغربيين أنها نتاج طبيعي ساهم في إفرازه عصر النهضة واختمر في عصر التنوير، يقول القس الأماني الدكتور جنفرايد كونزلن: (ومما يسترعي النظر بالنسبة لنظرية العلمنة المتصلة بعلم الاجتماع أنها كثيرا ما ترتبط بأفكار أساسية تنبع من التنوير الأوربي لأن علم الاجتماع الغربي نفسه هو في جزء منه أحد موروثات عصر التنوير)[3]

ولهذا يرون أن الدين برمته نتاج اتفاق انساني في شتى المجتمعات ولهذا يرى أبرز علماء الاجتماع الغربيين أن الدين هو عبارة عن مجموعة من الرموز التي تستدعي الاحترام وتوحي بالرهبة، وهو أمر تنظيمي من اختراع البشر شأنه شأن سائر التنظيمات الاجتماعية[4]

الطريقة الرابعة: بروز منهج النقد التاريخي:

يعد بروز منهج النقد التاريخي من الطرق المهمة التي سلكها كثير من الفلاسفة الغربيين، وذلك بعد أن وزن جميع الموروث المسيحي بميزان النقد التاريخي، ويعرفون هذا الاتجاه: بأنه يستخدم لشرح مجموعة من الادوات التحليلية الصادر من الباحثين كي يصل إلى أحسن

---

١ انظر: دراسة التاريخ، وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، هيوغ اتكن، ص ٣٥ وأسس علم الاجتماع، محمود عمارة، ص٢٣

٢ انظر: تكوين العقل الحديث،جون هرمان راندال، ١/١٨٥-١٨٧ والصراع بين العلمانية والاصولية، والاصولية، ص ١٨

٣ أمزق المسيحية والعامنية في أوربا، القس الدكتور جنفرايد كونزلن، ص ٢٣

٤ انظر: علم الاجتماع، انطوني غدنز،ص ٥٦٩ فما بعدها .

نتيجة بخصوص ما حصل[1]، وعلى هذا الأساس وضع الموروث المسيحي برمته في هذا الميزان،حيث لم يفرق من خلاله بين نص منصوص أو تاريخ مشبوه،أو وقائع حادثة أو أساطير ملفقة، بدأ من المسيح الذي لا يعضده النقد التاريخي في كثير من الاحيان، ولهذا يقول قائلهم: (من هو يسوع التاريخي ؟ فلو كان لدينا شريط فديو عن حياة يسوع، ومن هو ؟ فإلى أي مدى تحدثنا الأنجيل حقا عن حياة يسوع التاريخي ؟ خصوصا أن الأناجيل كتبت للتبشير بأن يسوع هو ابن الله .. فما هو دور المعلومات التاريخية؟)[2]

مرورا بالعقائد المسلمة والنصوص المقدسة وانتهاء بأعلام التاريخ المسيحي، فلم تعد فكرة فكرة " السلف المبشر" رائجة .

بل أصبح هذا السلف المبشر ليس معصوما كما كان، بل كان محل نقد وانتقاد، ولهذا يقول كانغيلام[3]: (إن القول بالسلف المبشر هو نوع من العمى التاريخي ... والحال أن الخلط الذي نسير عليه ليس صحيحا، إضافة إلى أن القائمة من الأسلاف التي نعثر عليها لا علاقة لها بالموضوع الذي يطرحه العالم)[4] ولهذا يرى كانغيلام أن نظرية السلف المبشر الذين طالما تسلى المؤرخون المزيفون بالحث عنهم والعثور عليهم في كل مكان هو مفهوم (خطير جدا بالنسبة إلى المؤرخ)[5]

وقد انسحب ذلك النقد التاريخي عند أعلام هذا الاتجاه على كل مقدس، فلم يعد هناك مقدس فوق مستوى النقد –باعتبارهم –، ومن ابرزهم سبينوزا الذي انتقد كل شي مقدس في المسيحية بدأ من الدين المسيحي والعقائد المقدسة والتاريخي المسيحي والنبوات، فيقول

---

١ انظر: المدخل إلى اللاهوت، نقله إلى العربية الاب حبيب هرمز، ص ٦٢

٢ نفس المرجع ص ٦٣ فما بعدها .

٣ هو كاتب فرنسي له كتابات عن المدارس اللاهوتية والفلسفية، كانت جامعة باريس تنشر مقالاته ظهر اول مقال له في عام ١٩٥٧م . انظر: مقدمة كتابه دراست في تاريخ العلوم وفلسفتها ص ٩.

٤ دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، جورج كانغيلام، ترجمة: د/ محمد ساسي، ص ٢٢

٥ نفس المرجع ص ١٠٠

مثلا عن الأنبياء: (والنتيجة التي نصل إليهار أنه ... لم يتلق أي شخص وحي من الله دون الالتجاء إلى الخيال)[1]

الطريقة الخامسة:التدين الظاهري:

ذهب جملة من فلاسفة عصر التنوير إلى اختراع طريقة جديدة من الطرق التي رأوا من خلالها النجاة من دين الكنيسة وطغيان رجالها، حيث يرى هؤلاء ضرورة الإيمان بإله، لكن مع إنكار الوحي، ولو أمام الجمهور، ولا يؤمن أتباع هذا الاتجاه بهذا الإله كما ينبغي، بل أنكروا الوحي، ويرون أن عمل الإله في نظرهم، هو أنه خلق هذا العالم ثم تركه يدور وفق القوانين المودعة فيه، فهو يشبه صانع الساعة التي يديرها ثم يدعها تتحرك من تلقاء نفسها وأما الإنسان فقد منحه العقل ثم تركه وشانه[2] ولذا فإن أصحاب هذا الاتجاه يرون أنه يجب أن يتغير الدين في كل عصر حتى يوافق المجتمع وهذا التغير (يجب أن يتم المرة تلو المرة ما دامات معرفة الإنسان تنمو وحياته الاجتماعية تتغير)[3]

الطريقة السادسة: الطبيعة:

لما سقطت فلسفات العصور القديمة ولم تعد قادرة على مواكبة التطور الهائل والسريع في الفكر الأوربي جنح بعض فلاسفة عصر التنوير إلى اختراع إله جديد يحل محل الآلهة السابقة وهو الإيمان بالطبيعة، تلك الطبيعة الحافلة بالحقائق –في نظرهم– [4] .

---

١ رسالة في اللاهوت والسياسة، سيبينوزا، ص ١٣٤

٢ انظر: لمشكلة الأخلاقية والفلاسفة، ص ١٣٨ والعلمانية ص، ص ١١٨

٣ تكوين العقل الحديث ، جون رادندال، ٢١٧/٢

٤ انظر: صلة العلم بالمجتمع، كراوذر، ٢٢٣/١– ٢٢٧ وفلسفة العصور الوسطى، عبدالرحمن بدوي، ص ١٦٨ وقصة الصراع بين الدين والفلسفة ص١٦٢ وكتاب من الحكيم القديم الى المواطن الحديث، بارودى، ص ٧١ وفلسفة العلم في القرن العشرين، د/يمنى طريف الخولي، ص ٥٩

ويقوم الإيمان بالطبيعة على الاعتقاد بأن النظام الطبيعي هو كمتحف الله للأشياء والمخلوقات التي انقسمت أبديا إلى أنواعها، وأصبح الإله – في نظرهم – هو المادة أو الامتداد، ولذا يرون أنه يجب تعليل جميع التغيرات على أنها تغيرات في أصل حالتها الأولى ضمن منظومة وحيدة من المادة، وليس للتغيرات الكيفية الظاهرة لحواس الإنسان أي علاقة بالفهم الحقيقي لحركات الأشياء المادية[1]

ويعني هذا، أن كل شيء في عالم الطبيعة له تفسيره المادي والتغيرات الطارئة عليه هي تغيرات في أصل ذلك الشيء وليس لأمر طرأ عليه بفعل أحد مع عدم الإدراك الكلي لحقيقة ذلك التغير من وجهة النظر الإنسانية، وكل هذا من اجل الفرار من القول بوجود علة عليا غيبية لها السلطة المطلقة على هذا الكون، ولذا فان علم الميتافيزيقيا أو الغيبيات لم يعد له وجود يذكر بين أولئك الفلاسفة.

وأبرز من سلك هذا الاتجاه هو كارل ماركس[2]، حيث يقول وهو ينفي تدخل الله في الخلق: (وإني فوق ذلك لشديد الاقتناع بالانتخاب الطبيعي هو السبب الأكبر والمهيء الأقوى لحدوث التحولات ...)[3]

ويقول أحد أولئك الفلاسفة ": "صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة "[4]

فأصبحت الطبيعة في نظرهم هي الرب الخالق والإله الجذاب الذي لم يقتل ابنه ولم يصلب أحدا لإنقاذ البشرية.

خامسا: نتائجها:

هناك جملة من النتائج التي توصل إليها مخترعو تلك النظريات الإلحادية ومن يقف خلهم يمكن إيجاز أبرزها فيما يلي:

---

١ انظر: عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ١٠

٢ وسيأتي الحديث عن نظرية كارل ماركس .

٣ أصول الأنواع، كارل ماركس، ص ١٢٢

٤ المذاهب الاقتصادية الكبرى جورج سول ص ٥١ .

أولا: تحقيق أهداف اليهود:

فالأيدي الخفية اليهودية قد نجحت نجاحا باهرا في استغلال ثورة النصارى على الكنيسة في ابتكار تلك الآراء الإلحادية والنظريات الفلسفية، فقد كان جل رواد تلك النظريات كانوا من اليهود المتعصبين ضد جميع الأمم، وقد صرحت بذلك برتوكولات حكماء صهيون حيث جاء فيها: (لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر ألأممي سيكون واضحا لنا على التأكيد)[1]

ثانيا: مقت الدين :

لقد رأى فلاسفة أوربا وتبعتهم على هذا جموع غفيرة ممن كانوا تحت ربقة الكنيسة،رأوا أن الدين لا يعدوا أن يكون شبحا مخيفا، وعملاقا نافقا، ونفقا مظلما، لا يعدوا أن يكون أصحابه ذوي اعتقادات جوفاء، وأساطير خرقاء، ليس لها مستندات علمية ولا حقائق عملية، ولهذا هجموا على الأديان هجمات شرسة أرادوا من خلالها إماتة كل الأديان،يقول أحدهم:(إن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب شيك بلا رصيد في المصرف، فهم قد صاغوا عبارات لا تكمن وراءها حقائق عمية،فعبارة "الحقيقة العليا غير المتغيرة " عبارة صحيحة نحويا، ولكنها أقرب شيء إلى شيك بلا رصيد حقيقي) [2]، لقد رأى فلاسفة أوربا أن الدين وباء آسن يجب التخلص منه بأسرع وقت ولهذا كان هجومهم على الدين والكنيسة هجوما ضاريا وحربا بلا هوادة يقول جان جاك روسو:(ان الدين الحق هو أن أفعل ما يجب علي فعله، ولكن ماذا فعلوا بالدين ؟ لقد جعلوا منه تعاليم لا صلة لها بحياة الناس لقد أضافوا إلى الأسرار العويصة المحيطة بنا تناقضات غير معقولة وجعلوا الناس

---

١ بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الثاني . ص

٢ T.R.Miles <religion and Scientific Qutlook,p .٢٠ نقلا عن الدين في مواجهة العلم ص ١٠

مغرورين متعصبين قساة وجلبوا لنا الحرب بدلا من السلم ..)[1] ويقول فولتير: (ان الطائفة المسيحية لم تفعل سوى الشر منذ سبعة عشر قرنا)[2]

ونتيجة لهذا فقد اعتقدوا أن الدين هو من انتاج البشر نتيجة مؤثرات – كما يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت لفظ (الدين) – ساعدت في خلق الدين كالأحوال السياسية والمدنية التي أسهمت إسهاما عظيما جدا في هذا المجال ويرى أن الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التي كانت تسود على ظهر الأرض، فعقيدة كون الإله (الملك الأكبر) صورة أخرى للملكية الإنسانية، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية. وكان الملك الأرضي القاضي الأكبر، فأصبح الإله يحمل هذه الصفات ولقب (بالقاضي الأكبر الأخير) الذي يجازى الإنسان على الخير والشر من أعماله[3]

وأصبحت تعريفات الدين عندهم لاتخرج عن تعريفات أي علم يتطور مبني على التجارب والآراء المثالة أو غير المثالية أحيانا ويظهر ذلك في تعريفاتهم للدين والعقيدة، مثل برجسون الذي قسم الدين إلى نوعين، وهما الدين الديناميكي، والدين الاستاتيكي، أما الإستاتيكي فلا يخرج تعريفه عنده عن نشأته من قبل الطبيعة، وأما الديناميكي فهو الدين المتطور الذي نشأ عن إنسان من صفوة البشر سما إلى فكرة مثالية حاول تطبيقها على الإنسانية كلها كالمسيح مثلا[4] لأو لأنه فن يصل إلى اعتقاده الانسان كأي فن من الفنون ويسمونه "فن عقلي " Intellectual Art" [5]

---

١ فلسفة الثورة الفرنسية، برنار غوروتويزن، ص ١٠٤

٢ فلسفة الثورة الفرنسية، برنار غوروتويزن، ص ٦٧

٣ انظر: encylopaedia of social scinces,١٩٥٧, vol ١٣,p.٢٣٣ نقلا عن الاسلام يتحدى ص ٢٨

٤ انظر: نشاة الدين، علي سالم النشار، ص ٢٢

٥ الدين في مواجهة العلم، ص٩٥ وص ١١٣

ولهذا فقد أصبح تعريف الدين في نظر أولئك بأنه جملة من تطبيقات العلم العام التي يمكن بواسطتها أن يحكم الرجال المستنيرون غيرهم من الجهلة[1]

أو كما يعرفه سبنسر: الذي يرى أن الدين هو الشعور بأننا نسبح في خضم من الأسرار أو الإحساس الذي نشعر به حينما نغوص في بحر من الأسرار [2]

أو كما يعرفه ماكس مولر الذي يرى أن الدين هو الشعور باللانهائي أو الإحساس باللانهائي[3]

أو كما يعرفه سالومون ريناك في كتابه التاريخ العام للديانات بأن الدين مجموعة التورعات التي تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا[4]

ثالثا: إحلال الإلحاد محل الدين:

يدور تعريف الغربيون في معنى الإلحاد على معنيين رئيسيين، وإلى كل معنى ذهب طائفة من الباحثين، وهو إما إنكار وجود الله أو وجود قوى فعالة خارج مجال المادة المحدودة

، وإما عدم إنكار الله في حد ذاته وإنما إنكار مصداقية النصوص الدينية، ويترجح أن مصطلح ملحد أو إلحاد قد ظهر في القرن السادس عشر بمفهومه الحديث[5]

وكلا التعريفين يصبان في مستنقع واحد، فمن أنكر النصوص الدينية ولم يؤمن بها لن يثق إلا بالمادة المحسوسة، وهذه المادة سوف تفضي إلى إنكار المغيبات التي يسمونها الميتافريقيات،وأولها هي إثبات وجود الله، وهذا مما لا يستطاع التوصل إليه عن طريق حس

---

١ انظر: تلخيص لبعض فصول كتاب نظريات علم الاجتماع، د / عبدالعزيز علي الغريب، اعداد، مساعد ابراهيم الطيار، WWWPDFFACTORY.COM وهذا التعريف للفيلسوف سان سيمون .

٢ مباديء علم الاجتماع الديني، روجيه باستيد، ص ٢٣ ونشاة الدين، علي سامي النشار، ص ٢١

٣ مباديء علم الاجتماع الديني،روجيه باستيد، ص ٢٣

٤ Salomoon Reinack –Histoire general des religion paris ١٩٠٩.p ٤، نقلا عن علم الاجتماع الديني، د/ عبدالله الخريجي ص ٣٤

٥ انظر: الإلحاد وأسبابه، الصفحة السوداء للكنيسة، ص ٨-٩

المادة أو التجربة، ولهذا فبعض فلاسفة التنوير الأوئل كان منهم من لا ينكر وجود الله وإنما ينكر مصداقية النصوص الدينية، كفولتير وسيبينوزا، وغيرهم، وقد أدى ذلك بهم إلى نقد الإله أو نقد وجوده في بعض أقوالهم[1] .

وعلى كل حال، فبعد أن تمكن رجال الفكر من زرع العداء للدين في نفوس الجماهير العريضة، أصبح العالم من وجهة نظرهم، هو عالم آلي وغير محكوم من قبل الرب [2] ويرون أنه (منذ منتصف القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر قامت الآلية بصياغة العالم وتحكمت بجميع التفكير العلمي وصارت متناظرة مع صورة الرب الوحيد الذي حكم من الأعلى بفرض قانونه اللاهوتي عليه)[3] .

فقاموا بنشر الإلحاد ولكن على أسس عملية — في نظرهم - استطاعوا من خلالها التأثير على الجماهير العريضة التي ترزح تحت وطأة أقدام رجال الكنيسة[4] واخترعوا عدة مسميات من شانها قبول ذلك الفكر الجديد بكل فخر واعتزاز كالعلمانية والديمقراطية والإنسانية وغيرها[5] ، أو تحت شعار العلم التجريبي ، وهو الذي يبنى على المشاهدات، والتجارب، لا على البرهنة، ولا على الاستنتاج من قواعد أو قوانين نظرية[6]

وإحلالهم لنظريات الإلحاد محل الدين قد لا يكون هو الوثوق بذات النظريات وإنما من أجل الفرار من الدين فقط، كما اعترف بذلك آرثوكيث الذي يقول عن نظرية داروين: (إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً،ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن

---

١ وسوف يأتي الحديث عن هؤلاء الفلاسفة وغيرهم في المباحث التالية .

٢ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٦

٣ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ١٨٩

٤ انظر: أوربا في العصور الحديثة ١/١١٨

٥ انظر: ص من هذا البحث و philippe nemo GO.EST –CE que I,occident? Puf,paris .٢٠٠٤,pv-٨ نقلا عن تاريخ اوربا وبناء اسطورة الغرب ص ٤٦

٦ انظر: عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص١٨ والمذاهب الفكرية المعاصرة، ص ١/٢٥٦

الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه)[1]

وصاحب ذلك حياة البذخ واللهو الذي تطور الى الانحلال من الآداب والقيم والأخلاق العامة وجنحوا إلى شرعنة التهتك والسفور ونبذ الآداب العامة،-كما يقول ول ديورانت -: "إن الكتاب الإنسانيين لم يكونوا أقل فسادا من رجال الدين الذين يوجهون لهم سهام النقد"[2]

سادسا: مدى حقيقة هذه النظريات الفلسفية وصحتها:

في الحقيقة والواقع إن أول ما يعقب به على مدى صحة تلك النظريات الإلحادية هو القول بأنها محاربة للعقول قبل أن تكون استدلالا بها، وتحريفا للفطر قبل أن يزعم موافقتها لها، فالفطرة الدينية التي تكون في بني البشر من صميم تكوينهم النفسي والجسدي، وهي مشتملة على التدين الجبلي في الإنسان، ولهذا فإن كان التدين عند كثير من الملاحدة هو من اختراع الإنسان إلا أنه عند أصحاب الديانات من صميم الفطر ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[3] ولهذا قال الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[4] فكل هذه الآراء الإلحادية والنظريات الفلسفية تخالف فطرة الإنسان الإنسان مخالفة سافرة[5]، بل وتخالف العقل الذي ميز به الإنسان عن سائر الحيوانات وهذا

---

١ الإسلام يتحدى ص ٤٣

٢ قصة الحضارة ٨١/٤/٥ وانظر: مأزق المسيحية والعلماينة في أوربا، للقس الدكتور جنفرياد كونزلن، ص ٢٥

٣ سورة الروم آية ٣٠

٤ سورة الأعراف آية ١٧٢

٥ ولهذا اقتنع كبار فلاسفة الاغريق الوثنيين بفكرة الإله والدين، يقول افلاطون: (ليس لنا إن نعرف الحقائق الا من الالهة أو من انبياء الالهة وعقل الانسان يحتاج إلى الانارة الالهية ليفهم ما يتعلق بالله كما تحتاج العين إلى نور الشمس لترى الموجودات) ويقول سقراط: (إن كل معرفة صحيحة بالالهة =

ما اعترف به حتى بعض فلاسفة عصر التنوير ومن قبلهم أيضا، ولهذا فقد جاءت أقوالهم تنضح حيرة وشكا فلا هم وافقوا الفطر فارتاحت ضمائرهم ولا هم وافقوا العقل فاقتنعت سرائرهم، بل كانوا في نار بين نارين ولقمة بين فكين وهذه جملة من أقوالهم التي تدل على ذلك:

يقول الفيلسوف فولتير[١] في احدى رسائله عن بحثه عن الحقيقة (فقد بحثت عنها طوال حياتي فلم استطع العثور عليها ولم ابصر إلا وميضا خفيفا يخاله المرأ انه هي)[٢] وقال مرة:(إننا نعوم في الشك وليس لدينا الا القليل من الافكار الواضحة)[٣] ويقول الفيلسوف روسو[٤] واصفا حيرته:(ان ما أريد ان اعرفه هو: كيف بنيغي ان أعيش وما هو المعنى الحقيقي لحياتي)[٥] ويتساءل فولتير فيقول:(ما هو الضابط ؟ الذي بعد كل شيء يمكن فرضه على الجشع وعلى الجرائم وأعمال العدوان التي اقترفت من دون قصاص سوى فكرة وجود سيد سرمدي عيناه علينا هو الذي يحكم حتى على أفكارنا الخاصة)[٦]

ولهذا توصل ديكارت بعد كل نظرياته الإلحادية، إلى أمر رأى أنه هو المخرج من تلك الحيرة وذلك الشك المسيطر عليه فيقول: (إني مع شعوري بنقص ذاتي، أحس في ذات الوقت بوجود ذات واجبة الوجود، أراني مضطرا للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهي الله)[٧]

= هي من الالهة) ويقول افلاطون في سقراط ورفاقه:(انهم التزموا إن يعترفوا بجهالتهم ويسلموا إن لا شيء يفهم ويدرس تماما) علم اللاهوت النظامي، القس جمس انس، ص

١ وسيأتي الحديث عن آراء فولتير

٢ فلسفة الثورة الفرنسية، برنار غوروتويزن، ص ٦٠ و كارل ماركس، سربست نبي، ص ٦٤

٣ فلسفة الثورة الفرنسية، برنار غوروتويزن، ص ٦٠

٤ وسيأتي الحديث عن نظرية جان جاك روسو .

٥ فلسفة الثورة الفرنسية، برنار غوروتويزن، ص ١٠١

٦ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ١٨٨

٧ انظر: الإخاء والسلم بين الدين والعلم، الانبا ايسوذورس، ص ٥٩

ويقول نيوتن: (إني قد رأيت الله في أعمال الطبيعة ونواميسها التي تبرهن وجود حكمة وقوة لا تختلط بالمادة ... لا تشكوا في الخالق ...)[1]

ويقول جون لوك[2]: (ان الذين لا يجوز التساهل معهم هم الذين ينكرون وجود الرب حيث لا يمكن للوعود ولا للعهود والمواثيق والايمان التي تربط المجتمع الانساني ان يكون لها أي تاثير كابح على الملحد)[3]

ويقول جون لوك بعد أن أثبت أن كل ماله وجود لا بد وأن تكون له بداية، نتج عن شيء تقدمه واكتسب وجوده من وجود غيره ثم قال: (..إذن فالينبوع الازلي الذي نتجت عنه جميع الكائنات يجب أن يكون هو أصل جميع قواها فهو إذن قادر على كل شيء)[4]

وإذا كان الإنسان عند أرسطو ومن تبعه حيوان ناطق أي مفكر، فهو عند الفيلسوف هيجل حيوان متدين حيث يرى هيجل (أن الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون له دين وأن الحيوانات تفتقر إلى الدين بقدر ما تفتقر إلى القانون والأخلاق)[5]

ويرى ستيس أن التدين عنصر أساسي في تكوين الإنسان والحس الديني وهو يكمن في أعماق القلب البشري، بل هو يدخل في صميم ماهية الإنسان مثله مثل العقل سواء بسواء[6]

وهذا التدين الذي هو امر فطري لكنه قد يطمر ويحجب عند من يحاول أن يحجبه أو يمنعه من الظهور بل ربما يمنع وجوده ولذلك أبت هذه الفطر أو ماتبقى منها إلا الاعتراف بوجود الخالق العظيم، وكأنها فلتات لسان من كثر من الإلحاد والطغيان الذي تفوهوا به

---

١ الإخاء والسلم بين الدين والعلم، الانبا ايسوذورس ص ٦٧

٢ وسيأتي الحديث عن نظرية جون لوك .

٣ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ١٨٨

٤ الاخاء والسلم بين الدين والعلم، الانبا ايسوذورس ص ٧٢

٥ موسوعة العلوم الفلسفية، هيجل، ترجمة: الدكتور امام عبدالفتاح امام، ص٢، ص ٤٧-٤٨

٦ انظر: الزمان والازل، مقال في الفسفة زالدين، ولتر ستيس، ترجمة د/زكريا ابارهيم، مراجعة، د/ احمد احمد فؤاد الاهواني، ص ٤٥

فيقول كانت: (إن الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر الهيه سامية)[1] أو كما يقول فورباخ عن الدين بأنه الغريزة التي تدفعنا نحو السعادة[2]

بل يرى دوركايم[3] إن الدين فطرة كامنة في قلب كل بشري ولا تحتاج في إثباتها إلى جدل طويل لانها بدهية[4]

ويذكر الفيلسوف الألماني لايبنتز قبل عودته إلى الدين عن نفسه فيقول:(فكرت تفكيرا عميقا في فلسفة المحدثين وخصصت كثيرا من الوقت للتجارب الفيزيائية والبراهين الهندسية وقد اقتنعت فترة طويلة بسخافة هذه الكائنات إلى إن ارغمت على استرداد هذه الصور الجوهرية وكان قوة قاهرة تضطرني إلى ذلك)[5] ويقول ديكارت:(إن الانسجام الوظائفي في الكون يرجع الفضل فيه إلى الله)

ويقول فولتير: (بحثت لأمثل هذه الأفكار بذهني فلم أجد سلسلة الاستنتاج تاخذني إلا إلى هذه النتائج لأني غاية ما رأيته أني تحققت أنه يوجد شيء في الوجود أقوى مني ليس إلا الله)

ويقول جان جاك روسو: (كلما أمعنت النظر في الحوادث التي تحدثها قوى الطبيعة ... وتاملت كيف تأثير بعضها في بعض ... فأنا اعتقد أن إرادة الله تتحرك الوجزد وتحيي موت الطبيعة)

ويقول دارون: (إني لمتيقن أن للكون ربا وأن إثباته والمناداة به من أعظم الفروض وأنا مؤمن أن ذلك الرب خلق العالم) وهذا غيض من فيض، من عتاة الإلحادة ومردته من الذين نازعتهم الفطر فخرج من بين ركام تظرياتهم الإلحادية [6]

---

١ الاجتماع الديني، احمد الخشاب، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٤م ص ٧٥

٢ انظر: مباديء علم الاجتماع الديني، روجيه باستيد، ص ٢٣

٣ وسيأتي الحديث عن نظرية دوركايم .

٤ انظر: علم الاجتماع الديني، د/ عبدالله الخريجي ص ٣٩

٥ مقالة في الميتافيزيقيا، لايبنتز، ص ١٣٠

٦ انظر: الإخاء والسلم بين الدين والعلم، الانبا ايسوذورس، ص ٨٨- ١١٠

وقال كرسيمو ريسن، رئيس مجمع العلوم في نيويورك: (أسباب الإيمان بالحقيقة الإلهية يعرفها العلماء، وتأبى عليهم عقولهم أن يردّوها إلى المصادفة) ويقول جيمز جينز: (شاهدات الرياضية في الكون تثبت أنه لم يوجد مصادفةً) ويقول آرثر أدنجتون: (تفسير الكون بالحركة الآلية أمرٌ لا يسيغه العلم الحديث) ويقول كانت:(ينبئني ضميري بوجود إلهٍ للعالم) ويقول نيوتن:(النظام الذي يتجلى في الكون يدل على وجود إله له) ومع أن لويد مورجان كان يقول بوجود عقل في المادة، إلا أنه كان يسأل: (ما الذي يُخرج هذه الأطوار بعضها من البعض الآخر على هذا الترتيب العجيب ؟) وكان يجيب: (إنه تدبير الإله أو توجيهه)

ويقول سبنسر:(المجهول هو تلك القوة التي لا تخضع لشيء في العقول، لكنها مبدأ كل معقول، وهي المنبع الذي يفيض عنه كل شيء في الوجود) وقال دارون: (تفَّرعت الأنواع من جرثومة الحياة التي أنشأها الخالق) [1]

وهذه الاعترافات من زعماء فلاسفة التنوير هي بمثابة الختم المبرم والقفل المحكم على كل من رأى إن العقل البشري هو السيف القاطع والبرهان الساطع في الحكم على المسلمات والبت في المبرمات المحكمات، كإحلال العقل محل الاله، أو نفيه بالكلية جل في علاه، وهذا هو ما فعله رعاع الكنيسة عندما انطلقوا متحررين من جبروت الكنيسة وسلطانها هاربين من فساد الكنيسة وطغيانها، فحكموا على الدين حكم الجاهل الغضبان، ونهلوا من الالحاد منهل الغائر الضمآن، فرأوا ان كل الديانات لا تاتي الا بشر وطغيان وانها قيد في سبيل حرية وكرامة الانسان، ولهذا ظهرت كثير من الفلسفات الالحادية التي تجرع – ولا يزال يتجرع – العالم باسره ويلات افكارها وعقيم مبادئها، وشرورها ومساوئها[2]

---

١ الله بين الفلسفة والمسيحية، عوض سمعان، ص ٤ وتاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص

٢وإن كان لهم مايسوغ لهم هذا الشطح العظيم والميل عن الدين – من وجهة نظرهم – فلهم ما يمكنهم قوله من فساد الكنيسة ورجالها، وطغيانها وانحلالها، ولكن أيسوغ ذلك لمن انتسب إلى الاسلام، وعلم بسنة خير الانام؟ .

=

وهذه الفلتات من قبل الفلاسفة وأصحاب النظريات الإلحادية هي مما تبقى من أثار الفطرة التي انحرفت أو حرفوها هم بأنفسهم، والتدين المنشود لا يمكن أن تستكن إليه الأفئدة إلا إذا وافق الفطر وقبلته العقول وسلمت له وبه النفوس، ولا يمكن كذلك أن يعرف إلا إذا صدر عن إله حق، ورسول لذلك الإله الحق، الذي يكون هو الوسيلة بين ذلك الإله وبين أولئك الخلق متكلما بما يفهمون، مبتعدا عن التعقيدات والقضايا الفلسفية والمقدمات العوجاء، والنتائج الشوهاء، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[1] وذلك ليفهمواعنهم مايريدون وماأرسلوا به إليهم [2] بكلام يناسب حالهم واستعدادهم وقدر عقولهم[3]

وذلك لان العقل البشري مهما بلغت مرتبته وتعقله لا يمكن إن يصل إلى الحد الاسمى والمنطق الأعلى في حل جميع القضايا الدينية والاجتماعية وهذا ما شهد هـ كثير من أئمة الفلاسفة .

= كيف تسوغ تلك التبعية المقيتة الدنيئة لبعض من يسمون برجالات الفكر والثقافة وإن يتبعوا تلك المناهج العقيمة والفلسفات العميقة، الذين يرددو القول بتبني مايكون من العقائد موافقا للعقل،فما فهمه وقبله في دائرة لإمكان فهو وحي، وإلا فمن وضع البشر انظر: محمد الرسالة والرسول لنظمي لوقا ص٥٨ وانظر: آفاق فلسفة عربية معاصرة:د.تيزيني ص١٦٢ والنص القرآني :تيزيني ص٣٩٥،٣٩٣،٢٥٤، ٨١؛ والعلمانية والممانعة الإسلامية :علي العميم ص . ٢٥٥ والأسطورة والتراث :القمني ص٢٥٩، ٢٤٤ومابعدهما؛ وجدل التنزيل :رشيدالخيوني ص ٦٨ والمقدمة لنصر حامد ابو زيد وص٣٧، ٣٩فمابعد،١٦٦،١٣٦،١٣٥،– ١٣٠ ؛– ١٦٩ والإمامالشافعي وتأسيس الأيديولوجيا الوسطية لنصرحامدأبوزيد ص ١٥؛ والتفسير الماركسي للإسلام :د.عمارة ص٨٨ والاستبداد والمرجعية في الخطاب الإسلامي، خالد أبوالفضل ص٨٥ وفي الشعرالجاهلي :طه حسين ص٣٧

١ سورة إبراهيم آية ٤

٢ تفسيرابن كثير ٤ / ٤٧٧

٣ تفسيرالألوسي ٩ / ٣٨٢

ويمكن أن يلقى الضوء في المبحثين التاليين على تلك النظريات حيث تنقسم النظريات التي نشأت في مواجهة الكنيسة بل ومجابهة الدين والعقيدة إلى قسمين، حيث لم تكن نظريا بدايات الثورة على الدين، كنظريات انتصارها على الدين، أو على ما تبقى من الدين، ولذا ينبغي أن يفصل بين هذه وتلك وذلك كما يلي:

المبحث الأول

أهم نظريات القرن السادس عشر والسابع عشر

لقد تميز القرن السادس عشر والسابع عشر منذ بداياته بطلاق النظريات الفلسفية التي توحي بوجود شك عميق نحو الطريقة التي تفهم بها العقائد والأخلاق في التعاليم المسيحية[١]
لقد عمت أوربا موجة فكرية ثقافية، تدعوا إلى الوعي بالذات والواقع، وتثير العقل إلى النظر والتأمل، وتحث الفرد على النقد والعصيان، تولاها جمع من الفلاسفة المفكرين، فسرت آراؤهم ونظرياتهم الجريئة، تخط الصفوف وتعد شعوب أوربا لمرحلة جديدة، لا مجال فيها للموك والرهبان ورجال الدين، بل الحكم فيها للعقل والعلم التجريبي [٢]

وقد قام بذلك جملة من مفكري القرن السابع عشر مثل غليلو ورينيه ديكارت وجوهانس كيبلر واسحق نيوتن وفرانسيس بيكون وبيندكت سيبنوزا وجون لوك في الوقت الذين رأوا بان العالم يعمل وفقا لقوانين شمولية مفهومة لا تتطلب المزيد من التدخلات من جهة الرب[٣] حيث يجعل الإنسان مستقلا عن الإله ويحول اتجاه اهتمامه إلى ناحية الذات[٤] .

فقد أظهرت هذه الحقبة ارتيابها في الحقائق العلمية غير أنها وضعت العقل في المقام الأسمى الذي يوزن به شتى الموازين على اختلاف بينهم .

وتكمن آراء العقليين في ما يتعلق بالإيمان المسيحي في أمور كثيرة، أهمها ثلاثة اتجاهات، ويمكن أن تذكر حسب ترتيبها الزمني، الذي نشأ في أوساط الفلاسفة العقلانيين في هذين القرنين، وذلك كما يلي:

---

١ انظر: المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، اندريه كريسون، ص ١٦٠

٢ انظر: فلسفة الثورة الفرنسية غروتو يزن، بوتار ص ٢٣-٣٨ وتاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، محمد محمد صالح، ص ١٠١-١٠٢ قصة الحضارة ٤١٢/٤٢ وفلسفة العلم في القرن العشرين، يمنى طريف الخولي، ص ١٢

٣ انظر: التاريخ المسيحي المظلم ص ١٨٢ والاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية، انجلس، ص

٤ انظر: الفلسفة المعاصرة في اوربا، إ.م .بوشنسكي، ص ٢٤

الإتجاه الأول: لايقدر العقل أن يصل إلى بعض الحقائق الموحى بها ويعرفها من تلقاء ذاته، غير أن العقل ينبغي أن يفسرها عندما يعرفها، لأنه قادر على إدراكها [1].

الإتجاه الثاني: إمكانية الوحي، غير أن حقائق عقلية يمكن للعقل البشري أن يصل اليها ويدركها من تلقاء نفسه، وينقحها ويعرف خطأها من صوابها، ومن هنا جاءت فكرة الدين الطبيعي أو دين العقل، وهو يتكون من العقائد المسيحية التي تقبل التعليل العقلي[2]

الإتجاه الثالث: إنكار الوحي، لأنهم يعتقدون أن العقل هو مصدر كل معرفة واعتقاد ديني، وأنه ليس ثمة وحي إلهي، و كلما جاءت بها لأديان وجميع المعتقدات إنتاج بشري، استمده من عقله المجرد[3]

والواقع أن كل هذه المراحل التطورية كانت تنبع من بوتقة واحدة، وهي التفسير العقلي لقضايا ونصوص الدين، فعندما يفسر العقل في المرحلة الأولى ما يعرفه من حقائق الوحي، فانه لا يفسره إلا على حسب مقتضاه، دون النظر إلى التفاسير الدينية التقليدية، والتطور في المرحلة الثانية تطورا ملحوظا، حيث جعل الوحي ممكنا بعد أن كان ثابتا، ثم مع إمكانيته جعل العقل والتجربة حقيقة من الحقائق التي لا يمكن الشك فيها، وجعل أحكامه ايضا تحكم بشكل مباشر على كثير من قضايا الوحي[4]، وأما المرحلة الأخيرة، فهو نهاية الأمر

---

١ انظر: المدخل إلى الفلسفةص ٢٨٥ وانسنة الوحي ص ٤٠١

٢ انظر: تاريخ الفلسفة الحديثةص ١٠٦و١١٦و١٢٣و١٤٠ وفلسفة الدين والتربية عندكانت ص ١٣و ١٧وانسنة الوحي ص٤٠١

٣ انظر: علم اللاهوت النظامي، القس: جمس انس. ص و العلوم الدين فيا لفلسفة المعاصرة ص ٢٨ و مشكلة الفلسفة ص ١٩٣

٤ ويدل على ذلك تعريفات فلاسفة عصر العقل للعقيدة والدين، مثل هيجل الذي يرى إن الدين: رد فعل تقاوم بت الطبيعة ما في ممارسة العقل مما يشل حركة الفرد ويقضي على تماسك المجتمع . انظر: نشأة الديم، علي سامي النشار، دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٤٩م، ص ٢٢ أو يسمى بالشعور الذي يحكم كذلك على الغيبيات الدينية كما يتضح في تعريف هيجل للدين حينتما يقول: الدين فن باطني يصور لنا الحقيقة الالهية من الداخل عن طريق الشعور الباطني، انظر: مشكلة الفلسفة، زكريا ابراهيم، ص ١٩٣

لدى فلاسفة العقل والتجريب وهو إنكار الوحي بالمرة، وجعل العقل هو المصدر المعرفي الوحيد لكل الشؤون الحياتية، وفي هذه المرحلة نفي الدين وعوديت حقائقه ومسلماته وحكم عليها بالتخلف والخطأ، وذلك (لأنهم يستطيعون تفسير الكون بكل مراحله في ضوء الاكتشافات الحديثة دون اللجوء إلى الاله، وهكذا أصبح الإله في نظرهم فكرة غير ضرورية)[1]

ويمكن أن يذكر أهم فلاسفة هذا العصر وأهم آرائهم الدينية حسب ترتيبهم الزمني وذلك كما يلي:

أولا: سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م):

من أوائل من عرف في ذلك العصر هو "سبينوزا" الذي طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس نفسه، ووضع الأسس التي قامت عليها "مدرسة النقد التاريخي " التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية، أي على أساس أنها تراث بشري، وليست وحياً إلهيا، وبالفعل حقق "سبينوزا " نتائج إيجابية.

فمثلاً استنتج أن كثيرا من اسفار التوراة، لم تنسب لكتابها نسبة صحيحة كسفر الملوك و القضاة وصموئيل بل إن أسفار التوراة الخمسة لم يكتبها موسى مستدلاً بما جاء في سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه، وقول كاتب السفر: "لم يأت نبي مثله من بعده " . وأيضاً استطاع أن يثبت أن التوراة قد عينت أماكن بأسماء لم " توضع لها إلا بعد موسى بقرون عديدة " [2]

ولم تتوقف نظرية الشك عند حد معين، بل سرت إلى كل أصول العقائد النصرانية، ولهذا نجد أن عقيدة الخلاص، هي من أكثر العقائد التي أشعلت نار التصادم مع الفلاسفة في ذلك العصر، الذين يمكن أن نسميهم فلاسفة الشك، ورأوا أن المسائل الدينية لا يصدقها

١ الدين في مواجهة العلم، ص ٦٣

٢ انظر "المشكلة الأخلاقية والفلاسفة "١٦١ ورسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، ترجمة: حسن حنفي . عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص١١٤

العقل كمسألة وراثة الخطيئة التي لا يمكن أن تصدق من قبل العقل أو تطبق، وقاسوا ذلك على كل من تألم من إنسان أو حتى حيوان، فهل يقال أن أحد آبائه أكل من طعام محرم؟

ثانيا: ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠):

ومن أعلام فلاسفة ذلك العصر العقليين الفيلسوف الشهير " ديكارت" الذي يعد مذهبه أبرز المذاهب الفلسفية في ذلك العصر، ولذا يصفه البعض بأنه (أول فيلسوف كبير حديث)[١] أو يوصف بأنه هو (أول من وضع هذه الثورة الفكرية في قالبها الأكمل)[٢] وقد دعا ديكارت إلى تطبيق المنهج العقلي والتجريبي في الفكر والحياة، يقول ديكارت: (العقل هو أحسن الأشياء توزعا بين الناس بالتساوي إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه كفاية) ثم يقول عن العقل:(يشهد هذا بأن قوة الإصابة في الحكم وتمييز الحق من الباطل وهي في الحقيقة التي تسمى بالعقل أو النطق)[٣]

وكان يرى أن العقل يدرك البديهيات بالحدس ويصل إلى الحقائق اليقينية، وأن الله لا يخدع أبدا، فنثق في الله وفي العقل ولنرفع الوصاية عن الانسان لينطلق باحثا عن الحقيقة ومشيدا للعلوم، ويرى بعض الباحثين أن ديكارت قد قدم "واحدة من أمضى صور العقلانية "[٤]

ومع اتباع ديكارت للمنهج العقلي إلا أنه تأثر تأثرا كبيرا بمنهج مضاد لمنهج العقل وهو منهج الشك حتى وصل إلى قضية لا سبيل إلى الشك فيها وهي (أنا أفكر فأنا موجود)[٥] ولهذا يرى (أننا كثيرا ما خدعنا من حواسنا وافترضنا شيئا ما صحيحا ولم يكن صحيحا ونحن لا نعرف بداهة في مثل هذه اللحظات أننا خدعنا .. وأننا نستطيع الشك شكا

١ عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص ٨

٢ الفلسفة المعاصرة في اوربا، إ.م .بوشنفكي، ص ٢٤

٣ مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، ص ١٦١

٤ فلسفة العلم في القرن العشرين، يمنى طريف الخولي، ص ١٢

٥ عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص٦٨ والموسوعة الفلسفية، ص ١٤٠

معقولا بصحة وجود ما يبدوا في العالم حولنا ولكن شيئا واحدا لا نستطيع الشك فيه: وهو أننا نشك لأننا إذا كان علينا أن نشك في ذلك فإن علينا أن نظل شاكين أيضا)[١]

وقد استثنى من نظريته تلك –لسبب ما– الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة ولم ينكر وجود الله معتقدا أن نصوص الوحي فوق مستوى العقل [٢]

يقول ديكارت:(وكنت أجل علومنا الدينية وأطمع كغيري في الجنة، ولكن لما علمت علما مؤكدا أن الطريق إليها ليس ممهدا لأجهل الجهلاء أقل مما هو ممهد لأعلم العلماء وأن الحقائق الموحى بها والتي تهدي إلى الجنة هي فوق فهمنا لم يكن لي أن أجرؤ على أن أسلمها لضعف استدلالاتي ..)[٣]

ويذكر عنه أنه كان يرى أن ميدان العلم الطبيعي وموضوعه، هو استغلال القوى الطبيعية وأدواته الرياضة والتجربة، ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر، ويعتمد على الاعتقاد والتسليم، ويرى أن عالم الأشياء الممتدة منفصل كل الانفصال عن عالم الأرواح التي تفكر، فلا مضايقة بين العلم والدين ولا سلطان لأحدهما على الآخر"[٤]

ولم يكن يعترف بضرورة الخلاف بين الدين والعلم الحديث ورأى أنه أوجد تلائما بينهما في فلسفته[٥] بل يصرح أحيانا كما في كتابه مبادىء الفلسفة بأنه يجب أن نتخذ لنا قاعدة معصومة وهي أن ما أوحى به الله أوثق بكثير من كل ما عداه[٦] .

---

١ عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص ٧٠ والموسوعة الفلسفية، ص ١٤٠

٢ انظر: قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ١٧٩ ومشكلة الفلسفة لزكريا إبراهيم ص ١٩٢ وأسس الفلسفة ص ٣٤٥

٣ مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، ص١٧٢

٤ كارل ماركس، سربست نبي ص ٦٠ وتفكير كارل ماركس، نقد الدين والفسفة،جان ايف كالفيز،ص ٤٦ والعلم والدين في الفلسفة المعاصرة: اميل بوترو / ١٩ . عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ١٣

٥ انظر: عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص٦٧

٦ انظر: مشكلة الفلسفة، زكريا ابراهيم، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٩٢

وقد كان ديكارت يصرح بانه مستعدا بان لا ينشر النتائج التي يتوصل اليها (اذا كانت لا توافق عليها الكنيسة)[1] وعلى كل حال فقد استثنى ديكارت المعتقدات الدينية من التحليل العقلي[2]

والحقيقة أن هذه الازدواجية الديكارتية ازدواجية شوهاء بين العقل والدين اذ كيف يوثق بالله والعقل مع أن الله- تعالى - نفسه — في نظر ديكارت - توصل اليه بطريق العقل، ويبدوا أن قول ديكارات هذا نابع من مخافة الكنيسة ورجالها، أو من مخافة الجماهية المتدينة ، فصبغ الالحاد بصبغة دينية، ظاهرها التدين وباطنها الالحاد المحظ. ويدلل على ذلك أن الحقيقة غير العقلية في نظر ديكارت مهما كانت أهميتها فانها "تختزل بأسرها" أي تعود إلى مفاهيم ميكانيكية خالصة...حيث إن الواقعة الأساسية ونقطة البدأ الضرورية في نظره إنما هي الفكر[3] ويرى أن تطبق طرائق العلوم الرياضية في دراستها للطبيعة على كافة مجالات المعرفة بما فيها معرفة العالم الخارجي الذي يدرك بالحدس العقلي إدراكا جزئيا[4]

---

١ عصر العقل، سوارت هامبشر، ص ١٣

٢ انظر: النزاع بين الدين والفلسفة ص. ١٧٩ ومشكلة الفلسفة لزكريا إبراهيم ص . ١٩٢وأسس الفلسفة ص٣٤٥ وأنسة الوحي ص ٤٠١

٣ انظر: الفلسفة المعاصرة في اوربا، إ.م .بوشنفسكي، ص ٢٤

٤ انظر: الفلسفة المعاصرة في اوربا، إ.م .بوشنفسكي، ص ٢٥ وهذه الازدواجية الديكارتية وجدت لها لها نظيراً في منهج بيكون التجريبي الذي دعا إلى رفع الوصاية على الانسان عن طريق الثقة في الحواس وفي الطبيعة فلسفة العلم في القرنالعشرين، يمنى طريف الخولي، ص ١٢

مع إن العلم التجريبي في حقيقته يعتمد ما جاء في التجربة ولو خالف كل الاديان والشرائع، التي يمكن تجربتهااذا يتطرق الشك إلى كل شيء غيبي ناهيك عن عدم قدرته على تجربة الغيبيات، ولهذا فلا يعد قول بيكون سوى محاولة تفصيل لباس الدين على مقياس حجم الالحاد .

والواقع أن المذهب الازدواجي ليس إلا مرحلة طبيعية في سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحي إلى الإنكار المطلق لهالعلمانية د/ سفر الحوالي و المدخل إلى الفلسفة ص ٢٨٥

وعلى كل حال، فنظرية ديكارت هي وهم وخيال ليس لها حقيقة في أرض الواقع، ويبدو أن ديكارت قد احس ذلك من نفسه حينا قال: (وعلى كل حال فقد أكون مخدوعا وقد لا يكون إلا قليلا من النحاس والزجاج ذلك الذي أعتبره ذهبا وماسا فإني لا أعلم مبلغ الخطأ الذي نحن عرضة له فيما يمسنا من الامور)[1]

ثالثا: باسكال (١٦٢٣- ١٦٦٢) :

وقد نحا باسكال منحى سيبينوزا في تطبيق المنهج العقلي، فيقول مثلا في نقده لعقيدة الخطيئة قائلاً: " لا شيء يزحم العقل الإنساني بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية، وإنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة " [2] .

وقد كان باسكال يرى أن الإيمان الديني لا يخضع للعقل، بل يتعلق بالوجدان القلبي، فالله مستشعر بالقلب لا العقل[3] ويلحظ أن باسكال كان يصرح في بعض آرائه أنه يسعى إلى تعديل الدين المسيحي لا الإلحاد [4].

وقد كان عقل باسكال مليئا بالشكوك رغم تمجيده للعقل، فقد قرر أن الأسس العقلية لا تدل على صحة الإيمان ولا على بطلان الإيمان [5] وبما أن العقل لا يستطيع أن يميز الإيمان الصحيح، فقد نظر نظرة شك إلى كل شيء متعلق بالدين .

فقد قرر مفهوم الشك كمفهوم عقلي يستند إليه، حتى لقد امتد ذلك إلى الشك في النبوات والمعجزات[6] .

---

١ مقال في المنهج، ديكارت، ص ١٦٥

٢ المشكلة الأخلاقية والفلاسفة "١٦١ ورسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، ترجمة: حسن حنفي .
عصر العقل، سيوارت هامبشر، ص١١٤

٣ انظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، ص ٢١٤

٤ انظر: عصر العقل، سوارت هامبشر، ص١٢

٥ انظر: الموسوعة الفلسفية، ص ٩٤

٦ انظر: المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، اندريه كريسون، ص ١٦٥

بل سرى ذلك إلى الدين برمته فيرى باسكال أنه يكفي لأن تكون أمرا متدينا أن تعمل بعض الأيقونات وترتيل بعض الأدعية، وتعد بالمسبحة بضع عشرات، وتركع بعض ركعات، وتعمل طبقا لطقوس دينية صبيانية ذليلة، فينال رجاء العذراء ورضا القديسيين ورضا المسيح نفسه[1]

رابعا: جون لوك (**١٦٣٢– ١٧٠٤م**):

لقد طور الفيلسوف جون لوك منهج العقل تطورا ملحوظا حيث طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض قائلاً: "من استبعد العقل ليفسح للوحي مجالاً فقد أطفأ نور كليهما وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق " [2] .

وكان لوك يرى أن الأفكار جميعها تأخذ مكانها في العقل من خلال الخبرة، ويرى أن هناك نوعين من الخبرة، وهما الخبرة الخارجية، والخبرة الداخلية، فالخارجية تكتسب من حواس البصر والذوق والشم والسمع، والداخلية تكتسب من خلال التفكير في العمليات الفعلية التي تتم لتمحص هذه البيانات، ويرى أن القانون الإلهي لا يمكن التعرف إليه بالفعل وهو يوافق المنفعة[3]

كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوربية آنذاك، وهو مبدأ الحرية الدينية وإعطاء الحق لكل إنسان في أن يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب[4] .

بل عمد إلى نبذ كل معرفة وأفكار تسبق التجربة والواقع "فلا مبادئ فطرية في العقل" وإنما على النقيض من ذلك فقد أثبت أن جميع معارف الإنسان مكتسبة، فأراد أن يثبت الثنائية الجديدة وهي الإنسان والعالم موضحا أن الناس في البداية كانوا أحرارا متساوين بحكم القانون الطبيعي ولم يكونوا خاضعين لمشيئة كائن أعلى، وقد اعلن لوك سخطه على نظرية

---

١ انظر: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، اندريه كريسون، ص ١٩٩

٢ قصة النزاع

٣ انظر: قصة الحضارة ٢٠١/٣٠ و٤٢/٣٢ والموسوعة العربية العالمية

٤ انظر: نشاة التحررية الاوربية، هارولد لاسكي، ص ٨٣ والصراع بين العلمانية والأصولية، ص ٢٦

الحق الإلهي المقدس وعلى المصدر الإلهي للسلطة والمؤسسة والدولة داعيا إلى الأصل التعاقدي لهما وهذه الأفكار قد القت بظلالها على الثورة الفرنسية فيما بعد [1]

فقد دعا لوك إلى ثلاث قواعد اتخذت كأسس للثورات والنظريات الإلحادية فيما بعد وهي تحكيم العقل، والحرية الدينية التي تمخضت عنها الديمقراطية واكتساب المعارف التي تمخضت عنها الإنسانية، وإنكار وجود الله أو إنكار سلطته على العالم .

خامسا: إسحاق نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧م) :

تعد نظرية إسحاق نيوتن من أعظم النظريات التي اتخذت كوسيلة إلى الإلحاد مع صحتها في ذاتها، وهي " نظرية الجاذبية " ويعد عمله تتميماً لما بدأه جاليلو، فقد أرسى دعائم المنهج التجريبي وقضى على المنهج الفلسفي الأرسطي[2]

فظهرت من خلالها النظرية القائلة:(أنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوى خارجية عنها)[3]، وبذلك كان هذا الاكتشاف الضئيل بمثابة النواة للمذهب "الطبيعي "والنظرية الميكانيكية اللذين كان لهما صدى واسع فيما بعد، وبذرت بذرة الانقلاب في المفهوم الأوربي في فكرة الإله أو حتى وجود الكون وطبيعته وذلك عندماعرض (نيوتن) على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانينثابتة تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية . ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالا علميا أوسع حتى قيل: إن كلما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم سموه (قانون الطبيعة)[4].

---

١ انظر: كارل ماركس، سربست نبي، ص ٦٣-٦٤ وفلاسفة القرن الثامن ة عشر، ايسايا برلين، ترجمة: فؤاد شعبان، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٠م ص ٤٠

٢ انظر: تشكيل العقل الحديث، كربن برينتون، ص ١٤٠-١٤١ والصراع بين الاصولية والعلمانية، ص ٢٤

٣ العلوم والدين:١٩.والعلمانية ص ٣٧٤

٤ الإسلام يتحدى ص ٢٧

فإذا كان قوس قزح مظهر الانكسار أشعة الشمس على المطر فما ذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء فالحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة[1]

وهكذا كانت هذه النظريات الإلحادية في القرن السادس عشر والسابع عشر هي النتاج المحتم للسلطة الكنسية الدينية التي تقمصها رجال الكنيسة في اعتمادهم على قانون الإيمان المسيحي الذي كان هو السبب الحقيقي لذلك التسلط ثم أصبح هو السبب كذلك لانقلاب النصارى على ذلك التسلط بفرض النظريات التي أرادوا أن تحل محل الدين.

---

١ انظر: religion without revelation n.y١٩٨٥ p ٥٨ نقلا عن الاسلام يتحدى ص ٢٨ و٨٥ the ege of analizysis p. نقلا عن الاسلام يتحدى ص ٧٣ والله يتجلى في عصر العلم، كريسى موريسون، المترجم: محمود صالح الفلكي، ٩٥/٢

المبحث الثاني

أهم نظريات القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

يعتبر القرن الثامن عشر نهاية عصر الشك، وبداية مرحلة اليقين الذي وصل إليه أولئك الفلاسفة من العداء المستحكم في نفوسهم، للدين، ولأهل الدين، وكل ما يمت إليه بصلة، فلم تعد موافقة الدين للعقل هي المطلب الأسمى لهم [1]، بل أصبح مطلبهم هو نفي الدين بالكلية حيث ذهبوا في الإنكار إلى أبعد حد حيث (دعوا إلى حذف اسم "الله " نفسه) وإحلال الإله الجديد، ذلك الإله المسمى بـ "المادة " [2]

هذه الحقبة من الزمن تعد حقبة " ما بعد الحداثة " لدى كثير من المؤرخين، والتي يطلق عليها في الفرنسية "post-modernite"، [3] والتي يعرفها بعض المفكرين بأنها " زمن استحالة التحديد"[4]

من هذا المفهوم، انطلق فلاسفة هذه الحقبة ثائرين على كل تحديد يملي عليهم الوقوف عند حده، ولهذا ما إن بدا القرن الثامن عشر حتى اشتعلت الحرب الضروس بين الكنيسة ورجالها وبين أصحاب النظريات الإلحادية الذين أعلنوا نظرياتهم الإلحادية أمام الملا ووقفوا بها في وجه مسوح الكنيسة ورجالها، مما كان له اكبر الأثر في انتصار الأفكار الإلحادية في شتى

---

١ انظر: الحضارة الأوربية في عصر الانوار، بيير شونو، ص ٧

٢ انظر: المشكلة الاخلاقيةو الفلاسفة، اندري كريسي، ص ١٧٥ وعصرالإلحادلمحمدتقي الأميني ص٦٤

٣ ٣ A.Giddens, The Consequences of Modernity.p. نقلا عن عن ما بعد الحداثة والتوير،، الزواوي بعورة، ص ١٢ والسوبر حادثة، علم الأفكار الممكنة، حسن عجمي، ص ١٢

٤ ما بعد الحداثة، مارجريت روز، ص ١٣ و " حوار " في مجلة الكلمة، لايهاب حسن، ترجمة، محمد سمير، ص ١٤

الاتجاهات، والتي مرغت أنوف رجال الدين في الوحل ومقتت الدين وجميع تعاليمه بل وانتشرت العبارة الشهيرة بين كثير من فلاسفة هذا العصر وهي أن (الدين أفيون الشعوب) [١] فالقرن الثامن عشر بمفهوم فلاسفة الإلحاد هو قرن معاداة الإكليريك[٢] ومؤسسة الكنيسة وهو عصر التطهير الشامل للسحر الذي كان يمارسه الدين المسيحي سواء الكاثوليكي أو البروتستانتي على العالم، حيث أخذ البشر يزيلون عبأ الألوهية فأضافوا إلى قتل الدين قتل الاله[٣] وقالوها بكل صراحة: (إن فرضية وجود الله أصبحت عديمة الجدوى) [٤] وتزعموا مهمة تخليص الفلسفة من فكرة " الله" فلم يعد في وسعنا الآن سوى أن نلمس منه سوى جثة هامدة[٥]

لقد قويت تلك النظريات الإلحادية، فلم تعد تلك الخجولة الخائفة أمام طغيان الكنيسة، ولم تكن أيضا تقف موقف الند للند مع رجالاتها، كلا، لقد تعدت تلك المرحلة بمراحل ؛ فأصبح القرن الثامن عشر والتاسع عشر –كما يسمونه – هو عصر موت الدين وقتل الإله وانتشار الإلحاد وقوته، فانتقل جبروت الكنيسة إلى جبروت الإلحاد .

لقد انقلب السحر على الساحر –كما يقال –، فاصبح المشردون مشردون والمضطهدون مضطهدون، في أنحاء كثيرة من البلدان التي قلعت عنها وصاية الكنيسة، وهيمنة رجال الدين، ففي ألمانيا عانى كثير من قسس الكاثوليك البارزين أو لقوا حتفهم في معسكرات

---

١ Kant(I.), Religion withen the limits of reason alon, trans with intro. And nots by theodore . m.greene and h. hudson, edited by harpper and brother, n. y. ١٩٦٠.(n.b)p.٧٢ نقلا عن كارل ماركس،مسالة الدين، سربست نبي، تقديم د/نصر حامد ابو زيد، ص ١٧

٢

٣ انظر: كارل ماركس، سرست نبي، ص ٦٥ وانظر الانسان المتمرد،البير كامو،ترجمة نهاد رمضان ص ١٤٣

٤ النظريةالمادية في المعرفة ، ص ١١

٥ انظر: مشكلة الفلسفة ، ص ٢٠٠

الاعتقال (وفي يوغسلافيا والمجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا عانى معظم الأفراد المهمين في سلك الاكليروس من السجن لفترات طويلة أو قصيرة بينما كان عد القسس والراهبات الذين ماتوا في معسكرات العمل أو جرى إعدامهم على يد السلطات في أنحاء العالم الشيوعي هائلا)[1]

فأصبح المعول في إثبات جميع المعارف الدينية وغيرها هو العلم والتجربة وكل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب[2]، بحيث يمكن فحصها أو إثباتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة [3]

ولهذا يقول رايشنباخ[4] عن تطور الفلسفة في هذا العصر: (مر العلم منذ موت " كانت" بتطور كان تدريجيا في البداية، ثم ازداد معدل سرعته بالتدريج، وفي هذا التطور تخلى العلم عن كل الحقائق المطلقة والأفكار المكسبقة ... وهذه الحقيقة وحدها تكفي لإثبات أنها قوانين تجريبية وليست قوانين يفرضها علينا العقل ذاته)[5]

وقد كان المذهب التجريبي هو المسيطر على فلاسفة هذا الصر في كثير من الأحيان، وقد نشأ هذا المذهب في حقيقته كرد فعل لمذاهب العقليين أمثال ديكارت وسيبنوزا وغيرهم من فلاسفة القرن الساد س عشر والسابع عشر[6]

ومن أبرز أصحاب النظريات الفلسفية في هذا العصر ما يلي:

---

١ موسوعة الاديان الحية، ز.س.ريفنز، –الكنيسة الكاثوليكية بعد حركة الإصلاح الديني،كوربيلشي، مشرف كنيسة فارم ستريت، ص ٣٢٤

٢ تعني كلمة التجريبية المشتقة من من الكلمة اليونانية empiria استخدام المناهج التي تقوم على الترجبة العلمية بدلا من أن تقوم على مجموعة من المباديء النظرية المسلم به الموسعة الفلسفية، ص ١١١

٣ انظر: كارل ماركس، رسبست نبي، ص ٥٩ وعصر التنوير، فلاسفة القرن الثامن عشر، ايسايا برلين، ص ١٠

٤ هانز رايشنباخ Hans Reichenbach ولد عام١٨٩١ م وتوفي عام ١٩٥٣ م وهو فيلسوف وفيزيائي وعالم منطق ألماني، من المؤسسين لمذهب الوضعية . انظر: الموسوعة العربية،

٥ نشأة الفلسفة العلمية، هانز ريشنباخ، ص ١١٦

٦ انظر: الموسوعة الفلسفية، ص ١١٢

أولا: جان جاك روسو(١٧١٢-١٧٧٨):

وهو صاحب نظرية العقد الاجتماعي، أوعلى اقل تقدير، يُعدّ أكثر فلاسفة أوروبا الحديثة تقريراً لفرضية العقد الاجتماعي، فهو يرى أن الإنسان بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمفرده، بل لابد من اجتماعه مع غيره من بني جنسه، ولما كانت إرادتهم تختلف وتتضارب، فإن اجتماعهم لا يستقيم له حال إلاّ إذا كان مبنياً على "تعاقد" فيما بينهم يتنازل بموجبه كل واحد منهم عن حقوقه كافة للجماعة التي ينتمي إليها، والتي تجسمها الدولة كشخص اعتباري ينوب عن الناس في تنظيم ممارستهم لحقوقهم، وبذلك تتحول تلك "الحقوق الطبيعية" إلى "حقوق مدنية": وتبقى الحرية والمساواة هما جوهر هذه الحقوق"[١]

فهو يدعوا إلى تنازل الفرد عن حقوقه للمجتمع، ولذلك يرى أن الأصل في الإنسان الفردية ولكن الكوارث ودوافع الاجتماع جعلته يتعلم اللغة ويألف الاجتماع على أن الاجتماع قد أضحى ضرورة، ومن العبث محاولة فضه، ويتم تحقيق ذلك الاجتماع من وجهة نظر روسو (بأن تجمع الكثرة المفككة على أن تؤلف شيئا واحدا، وأن تحل القانون محل الإدارة الفردية وما تحويه من أهواء وما تجرده من خصومات، أي أن ينزل كل فرد عن أنانيته، وينزل عن نفسه وحقوقه للمجتمع بأكمله..) [٢]

وقد كان روسو جريئا في تحديه للدين، وخروجه عن أخلاق وتقاليد عصره، فقد أن أن يكون الدين من الأخلاق بل إن الدين في نظره يفرض من أجل المصلحة الدنيوية، ويرى أن المجتمع دين مدني، لا يدع للفرد ناحية من نواحي الحياة مستقلة عن الحياة المدنية وأنه يتعين

١ قصة الحضارة، ول ديورانت، مجلد ١٨ ج ١ ص ١٦٠: ١٦١و انظر: كتاب من الحق الإلهي إلى العقد الاجتماعي د غالي شكري، ص ١٥٨، ١٥٩ وفلاسفة القرن الثامن عشر، ايسايا برلين، ترجمة: فؤاد شعبان، ص ٤٠ والعقد الاجتماعي، الكتاب الثالث، الفصل الرابع، ص ٢٣٩ وتاريخ الحضارات العام، مجموعة مؤلفين بإشراف موريس كروزيه، ٩٥/٥ و موقع الدورة الاستثنائية الثالثة لمؤتمر القمة الإسلامي ٧-٨ ديسمبر ٢٠٠٥م والثورة الفرنسية، حسن جلال، ص ١٧ الموسوعة الفلسفية، ص١٦٩

٢ تاريخ الفسفة الحديثة، يوسف كرم، ص ١٩٥-١٩٨ والثورة الفرنسية، حسن جلال ص ١٧

على الدولة، أن تنكر دينا كالمسيحية يفصل بين الروحي والسياسي، وأن لا تطيق إلى جانبها سلطة كنسية، ويرى أنه (إنما لزم الدين لأنه ما من دولة قامت إلا وكان الدين أساسها، على أن يكون هذا الدين قاصرا على العقائد الضرورية للحياة، تفرض كقوانين حتى لينفى أو يعدم كل من لا يؤمن بها، لا باعتباره كافرا، بل باعتباره غير صالح للحياة الاجتماعية) .

وليحق لنا أن نتساءل ماهي العقائد الضرورية من وجهة نظر روسو التي من أجلها يحكم بإعدام من لم يعتنقها، فيجيب بقوله: (هذه العقائد هي عقائد القانون الطبيعي، وجود الله، والعناية الإلهية، والثواب والعقاب في حياة آجلة، وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين، وللكل أن يضيف إليها ما يشاء إليها من الآراء في ضميره)[١]

هذه النظريات التي دعا إليه جان جاك روسو، هي في حقيقتها نظريات إلحادية أفرزت إفرازات خطيرة على العالم المسيحي، فهو يدعوا إلى نظرية العقد الاجتماعي وتنازل الفرد عن حقوقه لأجل المجتمع والدولة، ورغم مخالفة هذه النظرية لواقع الإنسان الذي جبل على حب التملك، لا يمكن تطبيق هذه النظرية على أرض الواقع وإلا أفرزت تعطيل الفرد على الحصول على حقه، وأقل ما يقال عن هذه النظرية أنها أسست للنظرية الشيوعية التي تبناها كارل ماركس [٢] وبدلا من إرساء قواعد مبنية على العدالة للنظام الاقتصادي الكنسي والإقطاعي، أرسى قواعد النظام الشيوعي الظالم، فأراد أن يداوي الداء بداء أعظم منه .

وأما نظريته في الدين وإن أحذق الكلام من ناحيته، إلا أن مفهوم كلامه يفضي إلى نفي الدين بالكلية، وإنكار الأديان، وإرساء بعض القوانين والنظم التي تسمى دينا، يلزم بها كل أفراد المجتمع إلزاما تاما، وذلك من أجل قيام المصلحة الاجتماعية ومسيرتها، بالإضافة إلى أن روسو قد رسخ للمذهب العلماني حيث يرى وجوب فصل تلك القوانين الدينية على المجتمع السياسي فصلا تاما .

---

١ تاريخ الفسفة الحديثة، يوسف كرم، ص ١٩٥-١٩٨ والثورة الفرنسية، حسن جلال، ص ١٨

٢ وسوف يأتي الحديث عنه خلال هذا المبحث .

ثانيا: دولباخ:

ظهرت نظريات دولباخ على سطح العالم المسيحي داعية إلى المذهب النفعي منكرة أي حياة أخروية، ساخطة على كل مأثور ديني واجتماعي أيضا فهو يصرح بأن عقيدة الله المأثورة، نسيج من المتناقضات وأن فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الإنساني ويدعوا إلى الإيمان بالإله الجديد المسمى ب " المادة" ثم يقول: (أي إله طيب ذلك الذي يحتدم غضبا، بل انقطاع الإله التام القدرة، لا يستطيع تنجيز ما يرسم من مقاصد ؟ ... الإله العادل الذي يرضى لعباده الأبرياء أن يكابدوا الظلم ؟ أي موجود شامل العلم ذلك الذي يجد نفسه مضطرا إلى اختبار الخلائق ؟ ...وإنه لمن المؤكد أن هناك أشياء تفوق قوانا، ومع ذلك، فلا شيء سوى المادة، تلك المادة التي تنتج ما تنتج، دون غاية وشعور)

وينكر دولباخ رجوع الروح بعد الموت، ويعتقد ان ذلك شؤما على البشرية، وحملها على أن تهمل في إصلاح هذا العالم، بناء على أنه سوف يكون هناك عالم أخروي سيكون فيه كل شيء على ما يرام[1]

وقد كان دولباخ من زعماء المنفعيين، فيرى أن كل إنسان لا يرغب إلا في سعادته الخاصة، ويرى أن الطريق إلى السعادة، هو عمل الملذات، واجتناب الآلام، والطريق إلى ذلك ليس من قبل قوة عليا، بل هي (الطريقة التي بها يساهم كل جزء من كل، في تحصيل الغاية التي ترسمها له طبيعته) ومثل لذلك بالجسم الذي تؤدي كل وظائفه باعتدال، كما دعا إلى "نظرية العقد الاجتماعي" التي بموجبها يتعهد كل فرد من الجماعة بان يعمل على خيرها وان يحترم مطالبهم[2]

فدولباخ نقد الدين كله بناء على مسلمات وتعاليم الدين المسيحي دون تقصي الأديان المخالفة، ولهذا كال سخطه كله على تعاليم المسيحية في نقده للدين .

---

١ انظر: المشكلة الاخلاقية و الفلاسفة، اندريى كريسي، ص ١٧٥

٢ انظر: كارل ماركس، سربست نبي، ص ٦٦ والانسان المتمرد، البير كامو، ترجمة نهاد رضا، ص ٦٤ والمشكلة الاخلاقية و الفلاسفة، اندريى كريسي، ص ٢١٧- ٢٢٠

وأما النفعية في حياة الفرد والجماعة فهذه غاية في نظر دولياخ غير أنه ينتقد عليه أنه لم يذكر وسائل تلك الغاية وطرق الوصول إليها .

ثالثا: فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م):

ربما كان من أعدى أعداء الكنيسة آنذاك، هو فولتير الذي شن هجوما كاسحا على رجال الدين، قبل أن يشنه على الدين نفسه، مبينا تناقض تعاليم رجال الدين وكبار علماء الكنيسة، وبين الأخلاق التي يوصون بها في الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والسذاجة والرحمة وإرادة السلام ومحبة الله، في حين أن هؤلاء الكهنة الواعظون لهم حياة البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والخدم والأرباح والموارد والمناصب، وتخويف الناس بالله من ناحية، ومن الشيطان من ناحية أخرى ليبقي على الشعب خنوعه وخضوعه [١] .

ثم انتقل إلى مرحلة أخرى وهي نقد الدين نفسه بعد نقد رجاله حيث انتقد العقيدة المسيحية في التثليث وتجسيم الإله والصور المقدسة وأنحى باللائمة على بولس الذي طمس المسيحية وحرفها، ويعتبر أن الخطيئة الأولى إهانة لله، واتهاماً له بالبربرية والتناقض، وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلق الأجيال البشرية وعذبها لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته، ويرى أن المسيحية تدعوا إلى الاعتقاد بأشياء مستحيلة، أو بأشياء تستعصي على الفهم، فالحية تتكلم، والحمار يتحدث، وحوائط أريحا تتساقط، بعد سماعها صوت الأبواق، ولذلك يرى أن الإيمان على هذا النحو هو الجنون، ويسخر من الكتاب المقدس سخرية لاذعة، تتجلى في قوله تعليقا على معلومات التوراة الجغرافية: (من الواضح أن الله لم يكن قويا في الجغرافيا)[٢] .

١انظر: المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ص ٣٠٤

٢ كارل ماركس، سربست نبي، ص ٦٤ والمشكلة الاخلاقية والفلاسفة ص ١٧٨ وقصة النزاع ٠٠ \ ١٩٠ .

ثم انتقل إلى نقد المسيح نفسه فهو في نظر فولتير رجل قروي من الجليل بفلسطين متأخر حضاريا لكنه كان يفوقهم ذكاء فأراد أن يؤسس جماعة دينية [1]

وينقد فولتير شعائر المسيحية وطقوسها السبعة نقدا مريرا، فيقول أن صيام المسيحية "دواء للفقراء لا يتعاطاه الأغنياء " ويري " أن الطقوس والشعائر والعبادات و الاحتفالات الدينية جرائم محلية يعاقب عليها كل من يزاولها لأنها ضارة بالمجتمع خاصة إذا تمت في صورة أضاح وقرابين "[2]

أما آراؤه السياسية فقد كان يدعوا إلى فرض قوانين وضعية تلزم الناس بالسير عليها ولم يعترف بأي سلطة دينية تقوم بها الكنائس فيقول: " إن التوحيد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام لذلك يجب إلغاؤه وإقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيها الراهب للقاضي " وقوله: " إنه لا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله لابد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة " .

فكانت آراء فولتير ثورة على الدين والقيم الدينية بكل ما تحمله من معنى بل وإلغاء النظام الديني إلغاء تاما واستبداله بالنظام المدني الذي يقف الجميع أمامه على السواء، وهذا التناقض الذي هو ديدن فولتير في منازعته للدين مع إقراره يظهر بكل جلاء حينما ينتقد الدين ويؤمن بوجود الإله ثم ينتقد الإله ويؤمن بالقانون الطبيعي .

رابعا: داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢م) ونظريته في مراحل تطور الإنسان:

تعتبر نظرية داروين من أهم النظريات الحديثة التي أسهمت إسهاما كبيرا في نشر الإلحاد بين أفراد الأمم والجماعات، حيث اعتبرها كثير منهم أنها مبنية على حقائق علمية، لا يمكن ردها[3] .

---

١ انظر: ايماننا الاقدس،الانبا يوأنس،ص ٢١

٢ مقتطفات من سلسلة قراءات إنسانية ج ٨ ص ٨٠ – ٨٧ .

٣ يشيد الفيلسوف الملحد برتراندرسل بالأثر الدارويني في هذا المجال قائلاً::(قيل في الإنجيل أن القمر قد خلق لينير بالليل ولكن العلماء مهما كانوا متدينين لا يعتبرون ذلك إيضاحاً علمياً لأصل القمر ولقد كان عمل داروين فاصلا بهذه المناسبة) انظر: أثر العلم في المجتمع ص ١٢و ١٣ .

وقد عمل داروين في مجال البحث عن أصل الأنواع وعن بداية نشوء الحياة على سطح الأرض معتمدا في دراسته على المستتحاثات المدفونة في باطن الأرض[1] فظهرت نظريته مدعمة بأدلة أثرية وتاريخية، في نظر المدافعين عنها، ويرون أن لها من القوة ما يكفي لتقف موقف الند في مواجهة الأديان، وذلك منذ بروز هذه النظرية، ولا تزال لدى الكثير إلى اليوم، يقول ويلز:(الحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية ... على أن هؤلاء كانوا إناساً غير عاديين أما الآن – أي بعد نظرة داروين – فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الإجمال متشككة)[2]

وقد أصدرت إحدى مكتبات نيويورك لكتب الجيب وهي "Modern – poc ;ke library; " سلسلة من الكتب تحت عنوان " الإنسان والكون " Man and the universe وقد جاء في الكتاب الخامس من هذه السلسة أن كتاب داروين "أصل الأنواع" كتاب غير مجرى التاريخ وجاء فيه:(إن الإنسان يبذل جهده منذ عصور سحيقة لمعرفة شجرة نسبه، وفي هذا الصدد لم تلق نظرية ما معارضة دينية، مثلما واجهت نظرية تشارلس داروين حول الانتخاب الطبيعي، كما أن أي نظرية لم تتمتع بالتصديق العلمي مثلما تتمتع به النظرية نفسها) [3]

ويقول عنها البروفيسور "ماندير ": (لقد ثبت صدق هذه النظرية، حتى إننا نستطيع أن نجعلها أقرب شيء إلى الحقيقة)[4]

ويقول العالم الأمريكي "كسبمسن" المعروف بحماسه لنظرية الارتقاء:(كان داروين أحد عمالقة التاريخ الذين ساهموا بجهود واضحة في رقي العلم الإنساني، لقد حصل على هذا

---

١ انظر: الإسلام يتصدى للغرب ص ١٨١

٢ نفس المصدر السابق .

٣ Philosophers Of science,p٢٤٤ نقلا عن الدين في مواجهة العلم ص ١٧

٤ A.E.Mander,clearer Thinling .p. ١١٣ نقلا عن الدين في مواجهة العلم ص ١٧

المركز، لأنه أثبت نظرية الارتقاء على أنها حقيقة نهائيا وكليا، بحيث لم تعد قياسا أو فرضا بديلا اخترع البحث العلمي)[1]

ويقول "لل":(لقد كانت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد، منذ عهد داروين حتى إنه لم تعد شبهة اليوم، لدى المفكرين والعلماء، في أنها الوسيلة المنطقية الوحيدة التي يمكن بها تفسير عملية الخلق، والتي يمكن بها وحدها فهم تلك العملية)[2]

وأثبت مثل ذلك كتاب دائرة المعارف البريطانية الذين نصوا فيه على أن نظرية داورين حقيقة علمية حظيت بالرضا العام من جمهرة العلماء والمثقفين [3]

فعزا الذين اقتنعوا بنظرية داورين في النشوء والارتقاء إلى أنها حقيقة علمية تقوم على أدلة عملية تثبت ذلك غير أن البعض يرى أن قبول العلماء لنظرية التطور وسرعة انتشارها كان (بهدف تقليل قيمة ما كانت تعلمه التوراة عن أصل الإنسان وثبات الأنواع)[4] .

وقد فصل داروين هذه النظرية في كتابه أصل الأنواع، حيث بدأ هذه النظرية من الانفجار الكبير "pig bang" حيث تناثرت ذرات الهيدروجين في الفضاء، ثم اتحدت جزئيات هذا العنصر، وهي بروتون، نترون، الكترون، حيث أعطت جزئيا عضويا معقدا، تمخض عن ظهور أنزيمات حيوية، وقد تمخض عن هذا الانفجار مليارات المجرات التي تحوي مليارات النجوم والكواكب والأقمار.

وبالأسلوب نفسه تكثفت الشمس، وانفصلت عنها الأرض التي بردت قبل ٤٥٠٠- ٥٠٠٠ مليون سنة، ثم تكثف بخار الماء الذي سقط على الأرض على شكل أمطار، ثم

---

١ Meaning Of Evolution (N.Y.١٩٥١) P.١٢٧ نقلا عن الدين في مواجهة العلم ص ١٧

٢ R.S.Lull, organic Evolution,p. ١٥ نقلا عن الدين في مواجهة العلم ص ١٧

٣ انظر: الدين في مواجهة العلم ص ١٨

٤ أصل الإنسان، موريس بوكاي، ص ٣٧

أثناء انجراف الماء، شكل مستنقعات آسنه، حملت أحماض أمينية ونووية، وبمحض المصادفة تحولت إلى أنزيمات حية ذات نشاط حيوي كبير[1].

وهذه الإنزيمات الحية تطورت إلى خلايا ثم تحول إلى نبات، ثم تطور من نبات إلى نبات يشبه الحيوان، ثم تطور من نبات يشبه الحيوان إلى حيوان يحس، ثم تطور إلى حيوانات فقارية، يعني: ليس لها أرجل ولا أيدٍ، بل تمشي على الأرض مثل السلاحف والحيتان في البحر، ثم تطور إلى القرد، ثم تطور من القرد إلى الإنسان، وقد زعم أن الإنسان يتطور فيصبح فأراً بعد خمسة آلاف مليون سنة، وذلك أن كل الحيوانات بما فيه الإنسان مرت بترتيب ارتقائي بحسب الزمن .

واستدل على ذلك بالحيوانات القديمة قبل ملايين السنين التي اكتشفت عظامها، حيث كانت بسيطة التركيب، ثم ظهرت أنواع أكثر تعقيدا ورقي، وهذا يعني أن كل الأنواع لم تظهر للوجود في وقت واحد، بل ظهرت الأنواع البسيطة أولا، وهذا يدلنا على اكتشاف مهم، وهو أن الجد الأعلى لجميع الكائنات جد واحد، وأنها كلها تنتمي إلى أسرة واحدة، بدليل تشابه النظام الجسماني لكل الحيوانات، ويؤكد هذا، أنك تشاهد أولاد أم واحدة غير متشابهين، بل توجد فروق بينهم، وهذه الفروق تتطور وتكبر بعد ملايين السنين، حتى إن الشياه ذات الأعناق الصغيرة تتحول إلى زرافات ذات أعناق طويلة[2]

يقول داروين:(إن الإنسان مثله مثل أي حيوان آخر تقدم – بلاشك – إلى وضعه الرفيع الحالي، من خلال الصراع من أجل الوجود، وذلك نتيجة لمضاعفته السريعة، وإذا كان سوف يصعد متقدما اكثر، يخشى أنه لا بد أن يبقى خاضعا لخدمة الصراع، والا فانه سوف يغرق في الكسل والعطالة، والناس الموهوبون أكثر من سواهم سوف لن يكونوا أكثر نجاحا في معركة الحياة من الذين هم اقل موهبة)[3]

---

١ انظر: الإسلام يتصدى للغرب ١٨١-١٨٢

٢ انظر: الدين في مواجهة العلم ص ١٨ -١٩ والاسلام يتصدى للغرب ص ١٨٢ وسلسلة تراث الانسانية ١٢٥/٩ والطريق الطويل غي الانسان ص ١٩٧ واصل الانسان، موريس بوكاي، ص ٣٧

٣ نقلا عن التاريخ المسيحي المظلم ص ١٨٥ و١٨٨

وكل ذلك الارتقاء كان عامله الأول ومسببه الأعظم هي الطبيعة، يقول داروين: (الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق) ويقول:(إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت)[١]

وكان ظهور هذه النظرية في عصر ازدهار النظرية الميكانيكية أحد العوامل المشجعة على قبولها فكلا النظريتين ترجع الحوادث الكونية كلها إلى قوانين الطبيعة العمياء فراراً من نسبتها إلى إله الكنيسة .

والحقيقة أن الدراونية أصبحت هي العصا السحرية لكل ملحد، برر إلحاده بنظرية التطور الداروني، حيث انسحب القول بالتطور من الإنسان إلى دين الانسان[٢]، بل إلى كل نواحي الحياة، سواء كانت تاريخية أو اجتماعية أو واقعية أو غيرها، مع أن أول ما يرد على النظرية الدارونية هو عدم وجود الدليل على وجود الجد الأعلى الجامع لشتى الكائنات، ويشهد على ذلك التاريخ والواقع، فلم يعرف على مر التاريخ تحول كائن من جنس إلى جنس آخر.

خامسا: سيغموند فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩م) ونظريته في الجنس:

يعد الطبيب الفرنسي اليهودي سيغموند فرويد أول من اخترع نظرية عقدة أوديب، حيث راح يفسر الحياة ومشاكلها وكافة أمراضها تفسيرات جنسية غربية [٣] .

ويرى فرويد أن هذه النظرية اكتشاف عظيم فيقول عنها: (يحق لي أن أقول إنه لو لم يكن للتحليل النفسي إلا فخر اكتشاف عقدة أوديب المكبوتة لكان ذلك خليقا أن ينظمه في عداد أثمن ما كسبه الجنس الإنساني حديثا)[٤]

حيث يرى أن الدافع الوحيد للإنسان من ولادته إلى وفاته هو الدافع الجنسي، فالمولود يرضع ثدي أمه بدافع جنسي، ويتبرز بدافع جنسي، ويظل يتعامل مع الآخرين بناء على

---

١ التطور والثبات: ٤٠

٢ حيث يرى هربرت سبنسر أن (الأديان تخضع لقانون التطور كما تخضع جميع الظواهر الأخرى) انظر: العلم والدين ص ٧٨ نقلا عن العلمانية، ص ٣٩٢

٣ انظر: الإسلام يتصدى للغرب ص ١١١ والخالدون مائة أعظمهم محمد، مايكل هارت، ص ١٣٢

٤ الموجز في التحليل النفسي ص ٦٦

هذا الدافع وحده، والدين والأخلاق والمثل العليا كلها نابعة من هذا الدافع أيضاً[1] وهذا ما يعرف عنده بالجبرية النفسية حيث تجعل الإنسان خاضعاً لغريزته مسيراً بها بلا اختياره، فهو لا يملك إلا الانصياع لأوامرها وإلا وقع فريسة الكبت المدمر للأعصاب[2]

ولهذا يقسم فرويد المراحل الجنسية إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي ما بعد الولادة، حيث تكون العلاقة بين الرضيع وأمه علاقة جنسية ويستدل لذلك فيقول: (أول عضو يظهر بوصفه منطقة شهوية، تعرض مطالبتها اللبيدية على النفس، هي الضم منذ الميلاد، فإلحاح الطفل على المص وتشبثه به في مرحلة مبكرة بنم بوضوح عن حاجة إلى الإشباع ... يمكن بل يجب أن توصف بانها جنسية)

المرحلة الثانية: وهي المرحلة السادية الشرجية لأن الإشباع فيها يطلب في العدوان وفي وظيفة الإخراج، وهي مرحلة الكمون فلا تبدوا فيها آثار النشاط الجنسي .

المرحلة الثالثة: هي مرحلة البلوغ، وتسمى (المرحلة القضيبية) وفيها تبلغ الجنسية الطفلية الأولى ذروتها، وتقترب من اضمحلالها تختلف مصائر الصبيان والبنات فيدخل الصبي الطور الاوديبي (ويلعب بقضيبه عبثا تصحبه أخيلة أن يزاول نوعا من النشاط الجنسي ذا صلة بأمه ...)[3]

وهذا التحليل الأوديبي لنظرية الجنس عند فرويد انسحب على الدين أيضا، فيرى حسب تفسيره الدنس للدين، أن أصل الدين هو الشعور بالندم الذي استولى على أبناء الأسرة البشرية البدائية الأولى حين قتلوا أباهم، ولماذا قتلوه ؟

لأنه كان يحول بينهم وبين اللقاء الجنسي مع الأم، وذلك لانهم راوه حائلا أمام رغبتهم الجنسية بأمهم حواء فقتلوه، ولم يقتل هابيل قابيل، ثم حزنوا وندموا على ذلك حتى قدسوه ثم عبدوه، ومن إكرامهم له بعد موته أعرضوا عن ممارسة الجنس بأمهم إكراما له، وهذا أول تحريم جنسي في البشرية، ولذلك يرى أن ابتداء الدين في صورته الأولى عبادة للأب، ثم

---

١ انظر: الموجز في التحليل النفسي لفرويد: ٢٢ – ٢٤ .

٢ انظر: الإنسان بين المادية والإسلام: ٥١

٣ الموجز في التحليل النفسي ٢٢-٢٥ ومعالم التحليل النفسي٦٢-٦٧ والعلمانية ص ٤٠٤-٤٠٦

تطور إلى عبادة الطوطم، ثم تطور إلى عبادة القوى الخفية في صورة الدين السماوي، وهي في الأطوار كلها ينبع من العقدة نفسها عقدة أوديب كما يصرح بذلك في كتابة اللذات والغرائز[١] .

ويمكن القول بأن نظرية فرويد أحاديث مزعومة لا تمت إلى الحقائق بصلة وكلها محض تخيلات وظنون خصوصا فيما يتعلق بالتاريخ، ومن ناحية ثانية فقد أتى ببعض الحقائق عن طور الرغبة الجنسية في مراحل البلوغ للجنس البشري على أنها مرحلة من مراحل عقدة أوديب، مقدما لها ببعض الأكاذيب عند ولادة الجنس البشري، جاعلا كل الدوافع البشرية تنطلق من هذه العقدة المزعومه ليصل إلى الاعتقاد بأن الدين نفسه نتج عن هذه العقدة .

سادسا: نظرية دوركايم(١٨٥٨ – ١٩١٧م):

يعد دوركايم أول من منهج النظرية القائلة: (بالعقل الجمعي) والتي تقول أن الإنسان حيوان خاضع لجبرية اجتماعية أو قهر اجتماعي، يفرضه عليه العقل الجمعي للقطيع البشرى، ويستمد شواهده المؤيدة من عالم الحيوان ومجتمع الحيوان[٢]

فنفي دور كايم أن يكون الدين فطري في الإنسان وإنما هو من عمل العقل الجمعي ذي السطوة القاهرة على الأفراد، وهذا العقل دائم التغير والتطور والتشكل، ويرى أن الأصل الداعي إلى الدين شيء خارجي هو – الأرواح أو القوى الطبيعية أو المحرم (التابو) – ويرى أن الإنسان ابتدأ تدينه بالسحر والشعوذة ثم تطور إلى عبادة آلهة متعددة ثم تطور إلى التوحيد[٣]

---

١ ص: ٧٧ – ٧٨ . الاسلام يتصدى للغرب ص وص ١١٦ ١١٢و الموجز في التحليل النفسي، سيموند فروسيد، ترجمة سامي محمود علي وعبدالسلام القفاش، ص١٥ ومنازع الفكر الحديث ص ١٨٧-١٨٨ وعلم النفس ومشكلات الفرد ص ٣٤

٢ انظر قواعد المنهج في علم الاجتماع،اميل دوركيم، ترجمة د/ محمود قاسم، ٤٢ و ٢٢٢ .

٣ انظر التطور والثبات: ٧٧ – ٨٠ .والمشكلة الاخلاقية والفلاسفة ص ٣٠٦

ولهذا فإنه يعرف الدين: بأنه مجموعة من العقائد أو المعتقدات التي يشترك فيها أفراد المجتمع، ويقسمه إلى قسمين: قسم قدسي عقدي متمثل في العناصر والقيم، وقسم عملي ويتمثل في الطقوس التي يزاولها أفراد المجتمع [1]

والحتمية القطيعية التي دعا إليها دور كايم هي ما تعارف عليه الناس وهي التي تحكم بين الناس، فليس هناك دين أو قيم أو أخلاق سوىما تعارف عليه الناس [2].

سابعا: كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣م) ونظرية الشيوعية:

من أهم النظريات الإلحاد هي النظرية التي اخترعها ماركس، ونظرية ماركس هي حتمية المادة، حيث يقول: إن الذي يحكم الناس: المصلحة المادية، ولهذا يقول: لا إله والحياة مادة، والدين في نظره أفكار وقيم أنتجها العقل البشري خلال تطورهم الثقافي، ثم نسبوها إلى الآلهة [3] .

غير أن ماركس يرى أن الدين كما يقول في عبارته الشهيرة "الدين أفيون الشعوب " وذلك أن الدين من وجهة نظره وان كان بشريا إلا أنه يدعو الناس إلى القناعة والرضى بأوضاعهم وصرف الانتباه عن المظالم واللامساواة في العالم وإلهاء الناس بما يمكن أن يكون نصيبهم من العالم الاخروي[4]

ولم يرق النظام الرأسمالي الذي آمن به تلك المصانع الضخمة التي شاهدها ماركس أثناء نفيه إلى بريطانيا، بل رأى أن فيها تسلطا على العمال من قبل أصحاب رؤوس الأموال وإجحافا

---

١ انظر: تلخيص لبعض فصول كتاب نظريات علم الاجتماع، د / عبدالعزيز علي الغريب، اعداد، مساعد ابراهيم الطيار، WWWPDFFACTORY.COM

٢ انظر: علم الاجتماع، انتوني غدنز، ص ٦٣ اتجاهات نظرية في علم الاجتماع . عبدالباسط عبدالمعطي . ص ٧٧–٨٨ وعلم الاجتماع الديني، د / عبدالله الخريجي، ص

٣ انظر: علم الاجتماع، انتونب غدنز ، ص ٥٧٩ والدين في مواجهة العلم، ص ١٢٧–١٢٨

٤ انظر: علم الاجتماع، انتتوني غدنز ، ص ٥٨٠

في حقهم وفصلا مقيتا بين طبقة الفقراء وطبقة الأغنياء[1] ولذا اخترع المذهب الاقتصادي الشيوعي وفلسفة المادة الجدلية [2]– والتي هي لست محل البحث هنا – .

هذا المذهب الذي يعد المنظر الحقيقي له هو صديق ماركس ويسمى انجلز حيث يقرر أن العوامل الاقتصادية تتحكم في كل الأنماط والنظم الاجتماعية مبديا مثالية المذهب الشيوعي [3]

ثامنا: أوجست كونت (١٧٩٨ – ١٨٥٧م) :

يعد أوجست كونت من أكبر المؤسسين للمذهب الوضعي والمؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع[4] الذي تأثر به كثير من المثقفين في أنحاء المعمورة[5].

---

١ انظر: للاطلاع على نظرية ماركس الاقتصادية: علم الاجتماع، اتتونب غدنز ، ص ٦٩ وعلم الاجتماع العام،صفوح الاخرس، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٨٥ واساسيات علم الاجتماع الاقتصادي، زينب محمد زهري ومحمد قباري اسماعيل، المنشاة العامة للنشر والاعلان، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٨٥م، ص ١٦٨-١٧٠ والاتجاهات النظرية التقليدية لدراسة التنظيمات الاجتماعية،عرض وتقويم، د/حسن صديق، ص ٣٢٦ اتجاهات نظرية في علم الاجتماع . عبدالباسط عبدالمعطي . ص ٦٧-٧٧ والخالدون مائة أعظمهم محمد، مايكل هارت، ص ٥٠ والموسوعة الفلسفية، ص ٢٨٨

٢ انظر: الموسوعة الفلسفية، ص٢٨٦

٣ انظر لمزيد من الاطلاع على المذهب الشيوعي كتابه: الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية، أنجلس، ص ٣٨-٩٢

٤ انظر: إتجاهات نظرية في علم الاجتماع . عبدالباسط عبدالمعطي . ص ٥٩ وعلم الاجتماع، انتوني غدنز، ص ٦١ والخالدون مائة أعظمهم محمد، مايكل هارت، ص ٥٠

٥ حتى من غير المسيحيين، من المسلمين وغيرهم، يقول محمد فريد وجدي عن نظرية كونت:(هذا هو رأي الفسفة الوضعية التي أساسها الدليل المحسوس الذي لا ينقض في أي عهد من العهود المستقبلية وهو يعتبر أساس الحكمة الاسلامية) السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفسفة، محمد فريد وجدي ومجلة الازهر ١٦/ ١٠٠

الذي لا يحكم بغير التجرية والمنهج الرياضي، ويرى أن كل مدلول في الطبيعة هو قابل للبحث، والحكم عليه بالصواب والخطأ، ويرى أن العلم الطبيعي المادي ينبغي أن يحل محل اللاهوت، وأن يضايقه كما ضايقه اللاهوت من قبل، وقد استبدل كونت جميع الأديان بدين جديد اسماه "الحضارة الانسانية" زاعما أن الدين إنما هو من مخلفات المرحلة البدائية والخرافية، والتي تطورت الإنسانية منها إلى المرحلة الميتافيزيقية على يد فلاسفة اليونان، ثم تطورت منها إلى المرحلة الوضعية والعلمية على يد النهضة الاوربية [1].

ويرى أن الدين الوضعي هو الحل الأمثل لما توصلت إليه الحضارة الانسانية، ولهذا فانه يقسم الحالات التي مرت عليها البشرية الى ثلاثة حالات وهي:

الحالة الاولى: المرحلة اللاهوتية، وهي قد مرت بثلاثة أدوار:

١ – الفيتيشية: وهي الإعتقاد في الظواهر الطبيعية وهي ما تسمى بالطوطم .

٢ – التعددية: وهي مرحلة التعدد الإلهي، واستدل بما عند الاغريق وغيرهم من تعدد الآلهة

٣ – التوحيد: وأعظم مثالا عنده هي النصرانية الكاثوليكية .

الحالة الثانية: الحالة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) وفيها يبحث الانسان عن علل الأشياء فأرجعها الى الطبيعة وهي المادة.

الحلة الثالثة: الحالة العلمية أو الوضعية أو الواقعية: وهي حالة النضوج، وفيها انتقل الإنسان إلى الحالة العلمية والواقعية والوضعية وابتداء مرحلة الملاحظة التجربة وتقنينيا لقوانين[2]

---

١ انظر: علم الاجتماع، انتوني غدنز، ص ٦٢ وعلم الاجتماع الديني، د/ عبدالله الخريجي ص ٣٤ واتجاهات نظرية في علم الاجتماع . عبدالباسط عبدالمعطي . ص ٦١-٦٦

٢ انظر: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، جورج كانغيلام، ترجمة:د/ محمد ساسي، ص ١٣٥ وموقف العقل والعلم واعالم من ب العالمين، مصطفى صبري ١٤٨/١، والموسوعة الفلسفية المختصرة، ص ٢٦٦-٢٦٧ وعلم الاجتماع، أنتوني غدنز، ص ٦١-٦٢

وعلى هذا فإن كونت فإن عبادة الواطم والأصنام هي الاعتقادات الأولى التي عرفها الإنسان في نظر كونت، ولهذا يسمي هذه المرحلة بالمرحلة الصنمية[1]

وهكذا يتبين أن كل نظريات القرن الثامن والتاسع عشر تكاد تكون متفقة على تخاذ النظام الوضعي الذي يحل محل الدين، واتخاذ الطبيعة التي تحل محل الإله واتخاذ العقد الاجتماعي بدلا من شرائع الأديان،كل ذلك بغضا لدين الكنيسة التي مارست باسمع أنواع التسلط على النصارى، فعندما حانت لهم الفرصة للإنقلاب عليها، لم يتوانوا في الهروب منها ومن ربقتها هروبا أبديا باسم النظريات العلمية، والتي هي في أساسها تقوم على الإلحاد والعلمنة.

وهناك بعض النظريات التي ظهرت فيما بعد القرن الثامن عشر والتاسع عشر، هي في حقيقتها تطوير للمذاهب التي أنشئت قبلها [2]، وهكذا كانت أكثر المذاهب المتأخرة لما بعد القرن الثامن عشر كانت تهذيبا لآراء فلاسفة الإلحاد قبلها وتهذيب وتقنينا لها، بالإضافة إلى أن هذه المذاهب المتأخرة جاءت بعد أن استحكمت عداوة الدين في نفوسهم وجوهر برفض الدين وما يمت اليه فنشات خالية من كثير من الصراعات التي خاضها فلاسفة الإلحاد قبلهم، ولذا لا تعد نظرياتهم من النظريات التي جابهت الدين وواجهت رجال الكنيسة .

---

١ انظر: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، جورج كانغيلام، ترجمة:د/ محمد ساسي، ص ١٣٦

٢ مثل مذهب سيتام ومل في المنفعة، هو في حقيقته تطوير وتهذيب لمذهب دولباخ فيرى تينام أن السعادة تقوم على أمرين،وهي أن كل فرد لا يرغب إلا في سعادته، وأن السعادة تتأتى بتحصيل اللذات واجتناب الالام انظر: المشكلات الاخلاقية والفلاسفة، ص٢٢٢ وعصر العقل، ستيوارت هامبشر، ص ١٨

وأما جون سنتيوارت مل فوافق دولباخ ولكنه أظهر أن فكرة اللذات لا تختلف فقط في الكمية وإنما تختلف كذلك في الكيفية فلأن يكون المرأ سقراط الساخط خير له من أن يكون خنزيرا راضيا، وذلك لوجود لذات رقيقة وسامية، ووجود لذات غليظة وسوقية أيضا. انظر: المشكلات الاخلاقية والفلاسفة، ص ٢٢٤ وعصر العقل، ستيوارت هامبشر، ص ١٧

الخاتمة